سحب و تعديل : علاء بريك هنيدي

ابراهيم صموئيل

الوعر الأزرق

الوعر الأزرق

الوعر الأزرق »قصص قصيرة«

إبراهيم صموئيل

الناشر: دار الجندي
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

دمشق – ص.ب 33418 هاتف: 3317019 (11 - 963 +)
فاكس: 3317008 (11 - 963 +)
Email: darjundi@scs-net.org

الطبعة الأولى: 1994

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: مارلو وكاريا

الطبعة الثانية ، 2004

إبراهيم صموئيل

الوعر الأزرق

قصص قصيرة

الى مرموشى

العتمة

المثير اللافت لم يكن في نصف الساعة التي قضاها الجمهور منتظرا قبل بدء العرض، بل في تلك الفاصلة من الزمن، القصيرة الخاطفة، أثناء العرض ذاته!

فالثلاثاء الماضي لم يكن يوم عطلة أسبوعية ولا رسمية، بل يوماً عادياً من أيام الأسبوع، والفيلم كذلك من الأفلام العربية التي كثر عرضها في الأونة الأخيرة، وحتى الصالة فهي من تلك الصالات العديدة، متوسطة المستوى، المنتشرة في دمشق... غير أن الحضور كان حاشداً إلى درجة امتلأت فيها جميع المقاعد.

أتاح لي ملاحظة ذلك قدومي المبكرّ، وجلوسي في المقعد الأول من الصف الخلفي، إذ رحت أتشاغل عن موعد بدء العرض بمراقبة الداخلين، وتقدير أعمالهم، وتخمين قرابة بعضهم إلى البعض الآخر: هذي زوجة تتأبط يد زوجها بوقار. ثلاث نساء، واحدة بغطاء رأس، يبدو أنهنّ معلمات. طالبة في لباسها المدرسي في المرحلة الثانوية. شاب متأنّق يتقدم مجموعة فتيات جميلات. عسكريان. فتيان يتسابقون إلى الدخول حاملين شطائرهم. طالبان يحملان كتباً جامعية. رجل وامرأة ريفيان كما يُظهر لباسهما. رجل منفرد، ثم آخر يمشي الهوينى كمدير شركة أو رئيس دائرة.

عجوز مع طفل يبدو حفيده... خليط من بشر يشبه خليط أي شارع من شوارع المدينة.

مع بلوغ الساعة السابعة تماماً، موعد العرض، دبّت الحركة إثر هروع المتأخرين نحو دليل الصالة كي يحتلوا مقاعدهم قبل أن تُطفأ الأضواء، فيما كنت أخرج نظارتي، وأمسح زجاجتيها وأضعها على وجهي، ثمّ أغوص في مقعدي متهيئاً لمشاهدة الفيلم.

غير أن ما حدث في الدقائق الأولى، ثمّ استمر طوال نصف الساعة أو يزيد، لم يكن متوقعاً أبداً!

فرغم امتلاء المقاعد عن آخرها، ظلتْ الصالة مشعشعة، متلألئة بالأضواء الباهرة المسلطة من كل جانب، وبقيت الستارة مسدلة باسترخاء، فيما أخذ انشداد الحاضرين يضعف دقيقة بعد دقيقة!

بالطبع، كان المشهد طريفاً في البداية، فحين تلفتُ حولي، بعد انقضاء دقائق، محاولاً استطلاع علة التأخير هذا، رأيت الوجوه كلها تتلفت مثلي باحثة، هي الأخرى، عن أسباب مانعة للعرض. كان بعض الجالسين ينظر باستغراب إلى بعض، وآخرون يحدّقون في الأبواب الرئيسة التي أغلقت، أو تراهم يقفون وقد شخصوا بأبصارهم إلى جلاسّ الطابق العلوي الذين، بدورهم، شرعوا يتلفّتون حولهم، أو يدلّون رؤوسهم ناظرين إلى الصالة علّهم يعرفون الأسباب الطارئة.

بعد ذلك، تبدّل المشهد، العقد الوحيد الذي جمع القاعة لدقائق هو استطلاع أسباب التأخير.. أما حين عجزوا، فقد انفرط العقد ونابت عنه مسالك شتى: اتجه

بعضهم إلى المراحيض لقضاء حاجته تحسباً من إلحاحها عليه أثناء العرض. واستغرق من يحمل مجلة أو صحيفة في مطالعتها وتقليب صفحاتها. كما انخرط اثنان في نقاش حول عدد مقاعد الطابقين العلوي والسفلي. في حين فتح آخرون أكياس الموالح وانهمكوا بها. وتحلّقت رؤوس فتيات رحن يتهامسن بحماسة بادية، ثمّ انفردت واحدة منهنّ لإصلاح زينتها عبر مرآة صغيرة أخفتها في كفها. أما مَنْ ضاق بالإنتظار وفكرّ بالإستفهام عن الوضع الشاذ هذا - كالجالس إلى جانبي مثلاً - فلم يكن ليتوجّه إلى جار أكثر منه جهلا فحسب، بل تراه لسبب ما، يهمس بسؤاله همساً «خير جار؟ شو القصة؟ ليش كل هالتأخير؟!» كما لو كان يخشى أن يُضبط متلبّساً بالسؤال!!

هكذا انقضى ما يربو عن نصف ساعة من الزمن: لا الإدارة – على عادة بعض دور السينما – كلّفت أحد موظفيها كي يعتلي خشبة المنصة معتذرا، أو معلناً دون اعتذار، عن أسباب طارئة اقتضت تأخير العرض عن موعده، بل هي، على العكس، قامت بإرسال أفواج من باعة المرطبات والحلويات للتجوال بين الصفوف والمقاعد، حيث راحوا ينادون على بضائعهم بأعلى أصواتهم كأنما الوقت هو استراحة بين شوطين في مباراة لكرة القدم.. ولا جمهور الحاضرين أبدى أي استياء أو اعتراض أو احتجاج بشكل معلن وصريح، كأنما حضر خصيصاً للاستجمام بشلالات الضوء المنهمرة عليه بقوة من كل ركن وجانب!

بغتة، رنّ جرس، وأطفئت الأضواء، واندفع شعاعٌ مركز يقطع فضاء الصالة نحو الشاشة التي انكشفت عنها الستارة، فخفّ بعض الحاضرين إلى مقاعدهم، فيما

توارى اللغط داخل أصحابه، ليطغى على المكان، مع بداية العرض، صمت ثقيل خاص، من ذلك النوع المشحون بالأنفاس وحرارة الأجسام البشرية، والذي يشعرك بمن حولك حتى دون أن تراهم.

كل شيء كان يمكن أن يمضي رخيًا، لولا برهة العتمة الداهمة!

ففي نحو منتصف الشريط، تعثّر الفيلم وتذبذب ثمّ توقف نهائياً. في تلك اللحظة تماماً، اثر انسحاب الشعاع الوحيد المسلط على الشاشة، التهمت الصالة عتمة كثيفة تعمي المرء حتى ليخال أنه انزلق إلى جوف حوت ضخم.

من الصعوبة تحديد المدة التي دامت فيها تلك العتمة، لدقيقةٍ ربما أو بضع دقيقة... غير أن الصالة، في تلك الفاصلة من الحلكة، هبّت عن آخرها. تفجّر الحاضرون فيها مثل ألغام موقوتة، لكأنما الناس، إذ تحتويهم العتمة معاً في مكان مغلق، يتحوّلون، في برهة، إلى كائنات أخرى غيرهم!

فقد دوّت في البداية لعنة سافرة صريحة: «ولك يا عرصك» لحقتها على الفور صيحة لا تقلّ دوياً: «... أخت أبوكم يا كلاب» تلتها صيحة من أول الصالة: «العمى يعميكم! لاحقينا لهون بقطع الكهربا!» جاوبه صوت جهوري من آخر الصالة: «إذا كان على قطع الكهربا بس... بسيطة!!» عقّب صوت حار: «ولك على قطع العمر كمان» فرقعت الضحكات، ثمّ ماجت وتداخلت، في تلك الفاصلة التي بدت بحراً من الزمن والعتمة، تعليقات وصيحات وسباب صريح وتحذيرات وتأوهات مقلّدة وأسماء أعضاء جنسية وصفارات ونداءات باعة واستغاثات... لا يمكن بحال تبينها كاملة، سوى أنها بدت، لشدتها واندفاعها، مثل حمم تنبلج من أعماق أرضية سحيقة ملتهبة.

وبطرفة، سطت الأضواء، فتبدّ آخر حسّ...

سوى تلقتك كسولة مستطلعة من بعض الوجوه، لا شيء يدلّ على مصدر الأصوات التي اختفت. فالصالة، بمن فيها، ظهرت مسترخية، رزينة تحت أشعة مجاهر الضوء، كما لو أن الصرخات والتعليقات التي تفجّرت قبل هنيهة كانت لمردةٍ فتح العتمُ الداهمُ قماقمَها بالسرعة ذاتها التي أغلقها الضوء المباغت.

وما كان للفترة، هذه المرة، أن تطول. فما إن أظلمت الصالة ثانية، وعاد الشعاع لينسكب على الشاشة، حتى تابع الفيلم عرضه كاملاً إلى نهايته. عندها، وفيما الستارة تتهادى لتغطي الشاشة... نهض الحاضرون للخروج، بعضهم يقفز فوق المقاعد، وبعضهم يقطع الصفوف ويعبر بعض الممرات، متدافعين بالمناكب، متزاحمين، يسعى كلّ منهم للفوز بالسبيل الأقصر والوسيلة الأسرع لمغادرة الصالة.

الصمت

سحب و تعديل : علاء بريك هنيدي

ما أضناني، على وجه الخصوص، هو جهلي. جهلي فيما إذا كانت علمت بما حدث أم هي لم تعلم؟!

وأن تجهل أمراً تعرف بأنه يمسّك ويعنيك مباشرة أشبه بأن تعلم بقرار اعدامك ثم تمكث منتظراً ساعة التنفيذ!

تلك هي المشكلة في مشكلتي. فإن لم تكاشفني هي بالأمر وتواجهني به صراحة، سأبقى على وهمي المضحك من أنني أخفي عنها أمراً خطيراً في حين أنها تعرفه كل المعرفة، رأته ولمسته، ثم تركتني مشغولاً مهموماً بإخفائه عنها بشتى السبل والحيل!

لو واجهتني، يومها، لهان الأمر.. فأياً كانت نتائجه، ليس لنا سوى أن نتصايح ونتلاسن ونتشاجر ثم نختصم لحين. بعدها، ستكرُّ الأيام وننسى. كلانا سينسى. مثل حادثة موت شخص عزيز، تبدأ كبيرة قاسية، ثم يتناوب

عليها الزمن فيضعفها ويحتُّها يوماً بعد يوم حتى تتبدد.

أما أن تصمت هكذا، فلا تقول شيئاً، ولا تبدي ما يدلّ على أنها علمت بما حدث فهو ما أقلقني بداية، ثم أنهكني استمراره، ثم طفق يضنيني حتى بتُّ متقلقلاً، مترجرجاً، تراني نزقاً حاداً مرة وليناً رخواً أخرى، صامتاً شروداً أو ثرثاراً ضاجّاً، لا أستقر ولا أرتاح.

فحيث أردت للحادث أن يصغر ويضمحل.. راح يكبر ويكبر! فلت من يدي. عندها لم يكن أمامي سوى التجاهل. قلت: تغابى يا صبي، وفعلت. لكن نظرتها ظلت تنبّهني إلى تغابيّ، فأخجل من نفسي وأضطرب.

فمنذ صباح اليوم التالي للحادث تلبَّست زوجتي عادة لافتة، غريبة عنها. فإذ نكون في زيارة، أو في الطريق، أو يمتدّ حديث عذب بيننا أو ننهمك بترتيب البيت أو نغرق في لحظة حب... كنت ألاحظ أنها تسكن لوهلة سكوناً تاماً وهي ترسل نحوي نظرتها الغريبة الملغزة تلك. نظرة طافحة بالحزن اللائم، والعتاب المرّ، والأسى. فأضطرب من أعماقي وأسارع إلى سؤالها: »ما بك؟!« فتراها تفرّ مختبئة خلف ضحكتها المعافاة: »أبداً. لا شيء« ثم تمضي فيما كنّا فيه!

أتراها تعرف بحقّ؟ أم انني واهم مثل لص بعد مغامرته الأولى، يظنّ أن كل من حوله يعلمون بفعلته وينظرون إليه متّهمين لائمين؟! ثم كيف أبدو لها؟ وكيف لي أن أسألها؟! كيف سأعرف ما تعرفه. وأعلم ما تجهله؟

حاصرني الشك وأتعبني. خصوصاً وأن حبها لم يتغيّر. لو تغيّر لوجدتُ ذريعة. مبرراً. لكنه ظل دافئاً كما عهدته. نقياً كما الإيمان في قلب متصوف. لم يتشوش اصغاؤها الحلو، ولا انحسرت لهفتها، ولا كلَّ دأبها في أن تخلق من بيتنا الصغير جنة الله على الأرض. ظلتْ كما هي منذ عشر سنوات، حين تزوجنا، إلى اليوم.

وأنا أيضاً، ما أحسست بالفتور نحوها يوماً. ولا تمكّنت السنون من قطف يناعتها في قلبي. فماذا أفعل لأمحو تلك النظرة المحيرة؟ فكرتُ، مرة، أن أجرؤ فأعترف لها. لكنني، من أعماقي، ضحكت وسخرت، إذ بدوت لنفسي مثل تلك الشاة التي أنهكها الركض وأضناها الهرب فقفلتْ مسرعة نحو الذئب!

جرَّبتُ أن أُجرجرها بالكلام، ولذا رحت أُورد ذكر غادة ـ صديقتها ـ مرات عدّة، أسألها عن أخبارها وأحوالها، وعما إذا كانت ستزورنا قريباً، فكانت تردّ

عليّ، مثل كل مرة، من دون أي امتعاض!

ثم انتهزتُ فرصةً كنا نلعب فيها »لعبة الصراحة« وجعلتها تقسم بحياتي أن تجيبني عن سؤال بعينه، علّها تفتح لي قلبها عن السرّ المكتوم وتريحني. سألتها: »أتخفين عني شيئاً.. أي شيء؟« فاندهشتْ مثل طفل: »أبداً! هل تلاحظ انني أخفي عنك شيئاً؟« وصمتتْ برهة، ثم أردفتْ بغنج: »أم أنك أنت الذي تخفي عني يا ملعون!!« بعدها رمقتني ساكتة تنتظر.

كفى! لا بدَّ أنها تعلم. فليس بيني وبين هاوية اليقين سوى زلَّة بوح أو كلمة أو تلميح عابر. وكيف لا تكون قد علمت! فيومها ـ وربما لأنها مغامرتي الأولى بعد الزواج ـ رحت أستبقي غادة مزيداً من الوقت كما لو كان لقائي بها فرصة عمر لن تتكرر. لعنة الله عليَّ! فلو لم أستبقها مزيداً لانقضى الأمر. لمات في أرضه، لا علم ولا خبر. لكنها اللذّة. فقد كنت غارقاً في لذّةٍ لها سحر اللصوصيّة ونكهة الاكتشاف. وإذ كانت تتخطّفني المخاوف والإضطرابات من عودة زوجتي من عملها، كنت أوغل بتعطّش ونهم في اختطاف مزيد من اللذة، كما لو كنت أواجه بنهبِ اللذة نهبَ المخاوف!

وامتثلتْ غادة فبقيتْ، بقيت إلى أن ذابت آخر لمسة

من الوقت، فتنبَّهنا، مرتبكين، نتدبر الفوضى التي خلَّفناها.

وما كدت أسترق النظر من النافذة نحو الشارع، وأسارع إلى التلصص من العين السحرية، مومئاً لها بالخروج، ومغلقاً الباب خلفها بهدوء، ثم أستدير ملقياً جسدي على أول مقعد، متنفساً الطمأنينة... حتى قُرِعَ الجرس.

نهضت مجفلاً!

»ما الذي عاد بها!؟« تساءلت وأنا أتلفَّت حواليَّ »لعلّها نسيت غرضاً«، فلم ألحظ شيئاً. سرقتُ النظر إلى الساعة متجهاً صوب الباب: »مجنونة! تعرف أن لا وقت لدينا!« ثم فتحتُ بعصبية واضطراب باديين.

دخلت زوجتي!

ومعها دخل الشكّ قلبي.

أية قدرة احتاج لأمحو، في ثانية، كل فزعي وشحوب وجهي؟ وكما لو كانت غادة تتوارى خلفي، صتُّ: »أهلاً« فخرج صوتي جافاً، أعجف، لم أتعرفه أنا نفسي. أسعفتني عادتها: رمت حقيبتها وهرولت إلى المرحاض.

أثناء غيابها القصير، حاولتُ استعادة توازني

والتهيؤ لاستقبالها على عادتي.. غير أن الشكَّ تلبّسني دفعة واحدة: »لا بدّ أنْ التقتها على الدرج!« ثم تحوّل إلى يقين حين فطنتُ إلى أننا نسكن الطابق الرابع، وان وقع حذاء غادة على الدرج ما كاد يختفي عني حتى قُرع الجرس، أي أنها، بالكاد، هبطت طابقاً واحداً، وبالتالي فإن لقاءهما وقع لا محالة!.

عاودني الارتباك بأشدّ مما كان وضيَّع فرصتي الأخيرة.

فيومها، مثل شرب الماء، كان سهلاً تبرير مجيء غادة وطيّ أي وسواس أو ارتياب لديها. فقط كان عليّ أن أبادئها: »لاحظي المصادفة! قبل برهة كانت غادة هنا. أرأيتها؟« ثم أختلق ألف حجَّة: جاءت تسأل عنك.. تطلب غرضاً.. تخبرني عن.. ألف كذبة أمامي، وبعدها يا غافلاً لك الله، لكنني لم أبادئها، واللعنة، أنها لم تبادئني أيضاً، ولو بسؤال عابر!

وهكذا، تجاهلاً بعد تجاهل، بات من البلاهة المضحكة بالطبع أن أقول لها: »هه.. فطنت.. جاءت غادة قبل أيام...« كما بات من المضني لي، وقد حسبتُ الموضوع انقضى، تجاهل تلك النظرة العاتبة عتباً حنوناً ومعذِّباً في آن، والتي إذ تباغتني بها المرة تلو المرة،

تذكّرني بما حدث، وتزيد من إحساسي بأن جداراً خفياً من زجاج شفيف كتيم ينهض بيننا ويعلو!

لا التغافل أجدى، ولا البلاهة نفعت، ولا التناسي تمكّن من رفع الإدانة الصامتة التي تقاضيني بها دون أن تمنحني أية فرصة للدفاع عن نفسي. أية فرصة لأن أصرخ، كاذباً عليها وعلى نفسي، بأن ذلك لم يحدث.. بأنه وهمٌ في رأسها.. ظنٌ كله إثمٌ.. ثم ارتاح لدفاعي وصراخي. لكأنما الصراخ، حتى لو كان باطلاً، مفتعلاً، وملفّقاً، حاجة كالتنفس لا يستطيع المرء من تلقائه خنقه حتى النهاية.

وعزمتُ بعد ذلك.

عزمتُ، وقد هدَّني الهرب، على أن أقفل مثل تلك الشاة. أقفل دون أن أعرف ما سيحدث، إذ لم يعد يهمّني أبداً.

ذات يوم، في آخر الليل، وقد ران كل ضجيج، ناديتها. آويت كفّيها بين كفيّ، ثم أطرقتُ متنحنحاً لأستمدّ الجرأة من صوتي. وإذ هممت في أن أبوح راوياً لها، ووصل الكلام إلى شفتيَّ، أحسستُ بأن صدري يضيق ويضيق، وأن قواي، مثل ورق خريف، تتساقط متهادية،

فرحتُ أُلملم عزمي مبتلعاً صمتها الكتوم، واضطرابي.

وقالت
خديجة
لخديجة

منذ اللحظة الأولى لدخولهما حديقة »السبكي« من بابها الرئيسي، أفلت أحمد يد أمّه، ناثراً زعيقه الحاد، ومنطلقاً كغزال صغير إلى حقل الألعاب الرملي، نحو كتلة الصبيان والبنات المتزاحمين على عتبة السلّم الحديدية لصعوده، فالتحم بهم وراح يتدافع معهم ليتمكّن من الصعود سريعاً إلى قمة السلّم، ثم ليطلق يديه في الهواء، متزحلقاً على الصاج، وهو يطيّر رفّاً من صرخات النشوة والحذر والترقب.. تماماً كخيالاته التي رسمها مذ وعدته أمه ليلة أمس، ثم أمسكت يده في الصباح وجرّته خلفها خارجة من بيتها وماضية نحو غايتها..

ولأن أحمد الصغير لم يكن يدري ما ينتظره في نهاية السلّم، فقد انبطح على الأرض، وشرع يدبّ على يديه وركبتيه ـ بعد عجزه عن اقتحام كتلة الأطفال المتزاحمين بسبب صغر سنه وحجمه ـ ثم انسلّ من بين

الأرجـل المتشـابكة، وطفـق يصـعد صـعوداً متلهوجـاً، سريعاً، لا بدافع منه فحسب، بل بدفع من الأولاد الآخـرين الذين لحقوه يبغون تقدّمه.

ولأن أحمد الصغير لم يكن يدري ما ينتظره في نهاية السلّم، فقد جمَّع كل قوة فرحه وعزم نشوته بالوصول، وأمسك بنهايتي ذراعي السلّم، حاجزاً بجسده الصغير الأولاد خلفه، فيما تكتلوا وهم يزعقون به، شاتمين لاعنين، يدفعونه مثل موجات متلاحقة، فيتقوّس ويتطوح دون أن يفلت قبضتيه المشدودتين، وهو ينادي بأعلى صوته الرفيع، الجارح: »أمي.. شوفيني. أمي ي ي.. شوفيني ي ي« لتراه وينتشي برؤيتها له وقلقها عليه بأكثر من انتشائه من الانسياب الليّن، السريع، الخاطف فوق الصاج المقعّر.

ولأن أحمد الصغير لم يكن يدري، فقد شرع، من أعلى السلّم، يجوب الحديقة، بعينيه، باحثاً عن أمه التي تركها، قبل دقائق، هنا، قرب حقل الألعاب. يحدّق في المقاعد، بين الأشجار، يسألها في سرّه، ثم ينادي أمه بأعلى صوته، كما لو أن نداءاته تعطيه المزيد من القوة لمقاومة دفع الأولاد خلفه، وللتثبّت في الإمساك بذراعي السلّم بعد أن شعر بالوهن يسري في ساعديه شيئاً

فشيئاً.. فيما كانت أمه، خديجة، مضت إلى الباب الخلفي للحديقــة، وأمســكت بقضــبانه الحديديــة، تقــاوم دفــع هواجسـها، كمـا لـو كانـت تقف علـى حـدّ سيف أو أمـام بوابات تفضي كل واحـدة إلـى جحيم، تقـاوم بعزمها كلـه، وهي تسأل نفسها وتعيد أسئلة السنوات الخمس الماضية ذاتها: كيف حدث ذلك يا خديجة؟ قولي لي. كيف حدث!

كيف، فجأة، دون مناسبة، صـرف جاركم أبو علـي، السمَّان، نظـره عن ديونكم شهراً واثنين وثلاثـة وستة؟! ستة أشهر يا خديجة وأبوك يستجرّ من دكانـه غرضـاً بعد غرض، كأنها فرصة العمر! ستة أشهر ما دقَّ بابنا يومـاً ـ كمـا اعتـاد ـ ليطالـب بالـديون بصـوت عـريض، عـالٍ، يتقصده كأنما ليُسمع سابع جار لنا، ويفضحنا. ستة أشهر، مع كل غـرض يذهب أبـوك لشـرائه دينـاً، ترينـه خجلاً، متردداً، يسأل السمّان بعينيه قبل أن ينطق بفمـه.. فيفهمـه اللعين، أبو علي، ويسارع للترحيب بأبيك »ولـو يا جار! الجار للجـار ولـو جـار. علـى حسابك. روح، إلهي يخليلك هالبنـات يللـي متـل العسـل«. طيـب ومـا دخـل البنـات يـا خديجة؟! ألأننا بناته؟ طيب، وما دخل العسل!! ومـا دخلـي أنــا بالــذات كــي يختــارني، مــن بــين أخواتــك الخمــس، ويصطحبني معه في زيارته لبيت السمان؟ أتذكرين ليلتها،

قبل خمس سنوات، كيف رجوته: يا أبي اعفني من زيارته. زوجته بعمر أمي، وأولاده صغار، مع مَنْ سأجلس؟ ويومها رجاني، فرجوته، ألحّ وأصرّ لأن أمك غشيمة ولا تعرف أن تحكي مع العالم كلمتين على بعضهما.. فقبلتُ وقلت في نفسي: هي زيارة وتنقضي. وفرح أبوك وفرحتُ لفرحه، هو هكذا طوال عمره، لا يطلب منّا شيئاً إلا برجاء ولا يمتنع إلا بمداراة. حين يفرح يفرح من كل قلبه، وحين يزعل يصير أصغر من أخيك سميح.

يا خديجة وما أدراني أنا؟؟ ما أدراني أن الخنزير سفَّر زوجته وأولاده، وأننا، حين سنصل داره ونجلس، سيضرب أبوك جبينه بكفّه متذكّراً دواء أخيك المريض ـ وأخوك كان مريضاً فعلاً ـ فيستأذن لدقائق كي يلحق بالصيدليات قبل أن تغلق؟ وما أدراني أن الخنزير، السمّان، ما إن يخرج أبوك من البيت حتى ينهض إليَّ؟!

لا تسأليني يا خديجة لِمَ لمْ أصرخ لحظتها. لا تسأليني. فأنت لو رأيت نهوضه الهادئ عن المقعد، عينيه الواثقتين، ومشيته الوئيدة نحوي لأحسستِ، كما أحسستُ، إنه لم يكن خائفاً! وهذا ما طيَّر عقلي يا خديجة. هذا ما أخرسني. ما من لصّ في الدنيا لا يقلق

وهو يدخل بيتاً غريباً ليسرقه. ما من لصّ يمدّ يديه إلى الحليّ والأموال دون أن تصيبه الرعشة. دون أن ترتعد فرائصه لأية نأمة أو أي صوت مهما خفت. الخنزير لم يكن كذلك يا خديجة! فحتى حين صعقتُ من إقباله نحوي، وارتددتُ فزعة، وسقطت مبهوتة.. ظل مبتسماً، هادئاً، مثل آلة أو تمثال، وهذا ما جنّنني وجعلني بكماء مذهولة، مأخوذة، أصدّق ولا أصدّق. كأن لساني انزلق إلى جوفي وسدّتِ المباغتة والدهشة حلقي. لا رعشة يا خديجة ولا رعدة ولا ظلّ خوف من عودةٍ لأبيك مفاجئة! أقبل عليَّ، لا زلت أذكر كما لو حدث بالأمس، مثلما يُقبل زوج على زوجته. ضمّني بقوة وجبروت كما لو كان اشتراني. وأنا يا خديجة، جسد مسلوب الروح والقدرة والوعي. بيدين من طمأنينة مريبة راح يعري سنوات عمري التسع عشرة، سنة وراء سنة، وشهراً بعد شهر، ويوماً بيوم.... حتى محا عمري كله في لفح لهاثه المحموم، الواثق، المطمئن!!

أتصدقين. وهو فوقي يفعلها، ما رأيت غير أبيك وهو يضرب جبينه متذكّراً دواء أخيك المريض. رأيته يعاود الضرب مرة، ومرتين، وثلاثاً، وألفاً.. ضرباً مبرحاً، دامياً، كمن يحاول قتل نفسه. صدّقيني يا خديجة.

رأيت أخاك الصغير سميح، أخواتك البنات الخمس، قابعات في البيت، يأكلن وينمن، ينمن ويأكلن، بانتظار صاحب النصيب. ورأيت أمك. أمك المسكينة الشقيّة التي أضناها الفقر وهدَّ حيلها. في دقائق قليلة، يا خديجة، رأيت حياتنا الشقية كلها. عمرنا المرذول. وعيشنا المرّ.

أقول لك شيئاً؟

حتى عندما عاد أبوك، وكان انتهى كل شيء، ودخل مسرعاً، فتأبط يدي: »خلّينا نمشي يا بنتي. تأخرنا« وخرجنا.. لم يكن ما حدث، على فظاعة ما حدث، قد كسرني بعد. فقد كانت فيَّ، لا أدري لِمَ، بقية من روح.. غير أن حال أبيك، وقتها، هو ما أشعرني بالخذلان وسحب آخر نبض في قلبي وكسَّرني. ساعتها كان حزيناً، مهموماً، مهدوداً، محني الظهر كما لم أره في حياتي. لا. لا تقولي لي يا خديجة. صحيح أنه بسيط، وطيب، ومغلوب من فقره كما تقولين... لكن مكانته في البيت، مثل قامته، لم تنحن يوماً. فما الذي جعله، ما إن خرجنا، يضمّ كتفي إلى صدره بأصابع متشنجة، راجفة، أوهن مما اعتدتها، ويقول مطرقاً: »بدها صبر يا خديجة. حالتنا بدها صبر«!؟ بلى. قالها مرات من قبل،

حين نتذمّر أو يضيق بنا الحال.. لكنه بوجه صبوح كان يقول.. بعينين تشعان رضى يردع تذمرنا، فنرضى. بلى يرجونا.. ولكن كما ترجو الأم وليدها لتعلمه المشي. أخبريني يا خديجة لِمَ أطرق تلك الليلة، لحظة خروجنا، ولمْ ينظر في عينيَّ؟ أين غاب وجهه الصبوح؟ لِمَ كان صوته يرتجف كأصابعه؟ من أين واتت صوتَه بحةٌ غريبة عن صوته؟ لو سمعتِ ما سمعت. لقد شقّ صوتُه جفافَ حلقه شقاً وخرج محزوزاً، ضعيفاً، كما صوت طفل مذنب بين يدي أبيه الشرس.

ولا أخفي عليك يا خديجة. منذ تلك الليلة وحتى هذه الساعة، وبعد أن زوَّجوني للخنزير نفسه، على عيون الناس، وبقيت معه ثلاثة أشهر، لا أراه إلا دابّاً فوقي صبحاً وظهراً وعشية، فتعاودني تلك الحمى الرهيبة التي عشتها معه تلك الليلة، وكأنه في كل مرة، المرة الأولى. وبعد أن حاولتْ زوجته تسميمي وهربتُ من جهنمه وطلَّقني للحال فالتجأت إلى أخواتك وركنتُ معهن أنتظر، مثلهن، النصيب. وبعد قال الجيران وقيلهم الذي لم ينته حولي، وبعد أن فاحت قصتي في الحارة وبتُّ هدفاً يجرّب فيه حظه كل طائش في الحي، وحكاية ترويها النسوة لبناتهنّ ليتعظن ويتنبّهن. وبعد

أن ضقت بالدنيا وعيشتي والناس وحتى بولدي نفسه، ولدي الذي ما رأيته إلا ورأيته. ما ضممته إلى صدري إلا وأحسست بملمس جلد الخنزير بين يدي. ولدي يا خديجة، صار شبحاً في حياتي. عاهة تذكّرني. كابوساً أحبه وأكرهه. أضمه فأبكي ثم أنفر وألعن حظي. ألاعبه ثم أفطن لنفسي ولحياتي كيف صرت وصارت لعبة للناس.

منذ تلك الليلة، يا خديجة، لا أخفي عليك، وحتى هذه الساعة، وبعد كل ما حدث وفات ما فات.. فإنني لا زلت أكتوي بنار لا يعرفها أحد، ولا يستطيع أن يتخيل آلامها ومرارتها إلا من جرّبها مثلي. نار سؤال واحد يا خديجة. ما عذّبني ويعذّبني. ما سحقني طوال السنوات الخمس الماضية ويسحقني غيره. سؤال واحد لا أستطيع الجواب عنه، ولا يحتمله عقلي أبداً: أكان أبوك، يومها، يعلم يا خديجة؟ قولي لي. أكان يعلم!

ومضة

كأن الحادثة وقعت بالأمس!

لم تمحها الأعوام الكثيرة التي مرَّت، ولا حتَّت من ألوانها وبريقها، فظلت حيّة في قلبي إلى أن تلبّستني عادة الابتسام والتلفّت كلما هممت بقطع شارع أو طريق، كأنني أبحث عنها أو أتوسل مصادفة تجمعني بها ثانية، ولو لمرة واحدة!

فيومها، كنت أقف مع مارّة كثيرين على طرف الشارع، أنتظر، مثلهم، توقف سيل السيارات المنطلقة بسرعة وتزاحم شديدين.

ما عنَّ ببالي، قبل لحظة من اندفاعي، قطع الشارع. لأن في ذلك مغامرة أو جنوناً يكلّف المرء حياته. لذا كنت أقف مستكيناً صابراً صبراً ملولاً.

بيد أنني، كما لو في غفلة عن نفسي أو بتقدير طائش من أن بإمكاني العبور أمام سيارة تلكَّأت في تجاوز

أخرى... وجدتني أندفع اندفاعاً من جمع الواقفين.

لحظتها تماماً، من حشد الواقفين على الطرف الآخر، اندفعت فتاة، عبلة، تبغي قطع الشارع.

والغريب في الأمر حقاً هو أن نعزم معاً، كأنما، هي الأخرى، قدَّرتْ تقديراً طائشاً كما قدّرت!

ففي اللحظة عينها التي اندفعتُ فيها، اندفعتْ. وآن قفزتُ أسعى إلى استباق السيارة المتلكّئة، قفزتْ... فبتنا معاً، وسط الشارع، في البقعة ذاتها، على مرمى السيارة، كورقتي خريف، وحيدين سوى من زعقة أطلقتها وهدير محركات وأبواقٍ وسباب سائق عجول..

لو كنّا حفنة قشّ زوبعتها زوبعة، أو عصفورين بين يدي قط نمرود لما ذعرنا واختلجنا وتلوّينا بالقدر نفسه ونحن نرى الموت يدركنا دون طاقة لنا على مقاومته أو مناص للخلاص منه.

في تلك الثانية، أو في جزء منها.. احتضنا بعضنا.

هكذا، برد فعل غريزي على موت داهم، لففتها ولفّتني. شددتّها إليّ وشدّتني، فوجدنا نفسينا، من رعب، ملتحمين، متداخلين، كأنما الواحد منّا يدفع الموت عن نفسه بجسد الآخر، أو هو يشدّ الآخر إليه ليموت معه كي

لا يكون مفرداً، يزيد موتُه وحيداً من مرارة موته.

لطرفة عين أو طرفتين، مكثنا مشدودين إلى بعض هكذا، نتمهّل لنصدّق أنّا نجونا. ووددتُ، في غمار تلك البرهة، لو ينسانا الزمان، لو تغفل الدنيا عنّا، إذ اعتراني إحساس مدهش بأنها ليست غريبة عنّي أبداً! لم تجمعنا المصادفة، ولا ضمَّنا الخوف، بل نحن عشنا معاً في ماضٍ ثمّ افترقنا، أو لكأنما كنت على سفرٍ في بلاد بعيدة وعدتٌ إليها.. أو كانت، وعادت إليَّ.

غير أن البرهة لم تطل. إذ، معاً، أجفلنا متنبِّهين. أجفلنا كما لو من سبات خاطف. بعدها أفلتتْ يديها ساحبة جسدها، فأفْلَتُّ يديَّ منسحباً، كمن يسلخ جلداً حيّاً عن لحم حيّ، ماضياً أقطع ما تبقى من الطريق، وماضية في اتجاه معاكس، لا أدري إلى أين..

»أبطل
الأبطلين«

لا أدري، ربما لأنها اعتادت رؤيتي مع أخيها، البالغ العاشرة ويكبرها بست سنوات، نتغالب ونتعارك فوق السرير، فأغلبه بعد لأي مثبّتاً كتفيه على الفراش ومعلناً انتصاري... ظنّتني هكذا، أو ربما خطفتها الحيرة والدهشة عندما لمحتني يوماً أحمل، دفعة واحدة، اسطوانتي غاز ملآنتين وأصعد بهما درج البيت في حين حاولتْ هي، مرة، رفع واحدة فارغة فجحظت عيناها السوداوان المدورتان واحتقنت وجنتاها الورديتان بالدم واحمرت كفاها الصغيرتان دون أن تستطيع تحريكها قيد أنملة، ظانَّة أن جبل قاسيون، لو أرادت رفعه، لكان أخف من الأسطوانة وزناً. أو ربما منذ تلك السهرة التي ضمّتنا وطفقتْ ترقص فرقصتُ معها وشاركنا أخوها وانضمت أمها إلينا، فانفجرنا ضاحكين من عائلة راقصة كهذه لا تحتاج طبّالاً كي تشدّ حلقة الرقص.. ولحظتها، في غمار هرج وضحك، رفعتها مع أمها وأخيها ودرت بهم دورتين متحمساً من زعيقهم

النشوان. أو ربما يوم كانت تتفرج عليَّ كيف أرتق جدران البيت الطيني وأدعم دعائم السقف الخشبية فانزاحت العارضة الوسطى الثخينة وكدت أنهرس تحتها لولا، من حلاوة الروح أو من زعقتها المرعوبة، تلقّفتها بكتفي ثم ابتسمت مطمئناً ابنتي رغم آلام الظهر التي لازمتني بعد ذلك.

ومن أين لنا أن نعرف كيف نبدو في عيون أطفالنا؟ من أين لنا أن نضبطهم وهم يشكّلوننا على هواهم حين يروحون، في زحمة انشغالنا عنهم، يسترقون النظر إلينا ويرهفون السمع، يتسقَّطون كل حركة أو ضحكة أو انفعال أو مشهد أو نأمة تصدر عنّا ليبنوا منها قناعاتهم الخاصة وعوالمهم الخفية؟

ربما لتلك الأسباب، أو لغيرها مما أجهله، اعتقدت ابنتي اعتقاداً جازماً، كتيماً، لا تنفذ إليه ومضة من شك، أن أباها بطل!

هكذا، بطل، دفعة واحدة!!

وبطولتي لديها، كما لاحظتُ، بسيطة كنسمة، إذ لاتمتُّ بصلة إلى المعاني البدينة والأفكار الجليلة والقضايا ذات الوزن الثقيل مما يندرج في قاموسنا نحن الكبار.

ليست من هذا القبيل إطلاقاً. ببساطة، هي أن أباها قوي، جسمه متين وعضلاته قوية. يحمل، لو أراد، وهي تتحدى في ذلك، حماراً بحاله!

كيف لا، وهي لاتني تلاحقني في البيت من غرفة إلى غرفة، ترمقني بنظرات إعجاب وثقة لو أزحت الخزانة أو دفعت البراد أو رفعت طرف السرير... فتصفِّق مهلّلة معتزّة ثم ترجوني أن أريها عضلاتي، فأمتثل شادّاً كُمَّ قميصي عند العضد إلى أن أرى الذهول يشعّ من عينيها، عندها تسارع لمناداة أمها: »أمي... أمي... شوفي أبي شو بطل.. والله بيغلب عشر زلم من حارتنا.. مو هيك؟« والمصيبة أن أمها تصادق »طبعاً.. أبوك بطل.. مو شلون ما كان«!!.. عندها يكتمل النقلْ بالزعرور، وأصير، في قناعة ابنتي، »أبطل الأبطلين« و»أقوى الأقويين« كما درجت على وصفي!..

كيف ركبها هذا الوهم، وتحوّل إلى اعتقاد راسخ، وأنا الذي لم ألعب الكرة يوماً ولا لاكمت دجاجة ولا جرّبت نفخ عضلاتي، فنشأت، مثل باقي خلق الله، لا كتلاً بارزة ولا جسامة ولا من يحزنون... هذا ما أجهله وما يثير استغرابي حقاً؟!

طبعاً، كان يمكن التغاضي عن اعتقادها هذا، فكم من اعتقاد أو قناعة تجاهلناها لدى أطفالنا وسخرنا منها مقدِّرين أن الأيام ستعصف بها كما عصفت بقناعات كبيرة كنا نحملها في طفولتنا. ولذا لم يكن تباهيها شاذاً أو غريباً عن تباهي جميع الأطفال بآبائهم، خصوصاً من هم في سنِّها لولا أنها، في الفترة الأخيرة، زادتها قليلاً!.. فهي لا تترك فرصة إلا وتُظهر اعتزازها بقوة أبيها كما لو كانت تملك لعبة أو دمية نادرة المثال وتحرص على عرضها للقاصي والداني بمناسبة ودون مناسبة!

وأصدقائي زادوها أيضاً!

فلرغبتهم بالتمتع برؤية علامات التحفز والترقب والقلق على وجه ابنتي، ثم أمارات الفرح والنشوة بالفوز.. ما برحوا، كلما زارني واحد أو اثنان منهم، ينادونها هازئين: »إي أبوك فافوش.. خروق.. بإصبعة وحدة منغلبو..« فتثور وتهوج شادّة يدي لأقبل التحدي: »بابا غلبن.. مو أنت أبطل الأبطلين؟« وينخرطون في اللعبة، يغالبونني ثم يغلِّبونني، منقلبين على ظهورهم من شدة الضحك المتواصل لمرآى ابنتي وهي تتقافز هنا وهناك مصفِّقة، ضاجّة، ومطلقة أغرب كلمات التشجيع

وأطرفها...

ويا إلهي، حينها، كيف تغدو..

مثل سهم ينعتق من وتر مشدود.. تندفع نحوي. تعانقني وتشدّ، ثم تنظر إليّ فأرى في وجهها تلك الحمرة النارية البريئة حول مقلتين سوداوين راقصتين من نشوة، مفعمتين بالثقة، تقول وتعيد: »أبطل الأبطلين أبي.. أبطل الأبطلين«.

وزاد الطين بلاً أنني، عوضاً عن الحدّ من وهمها هذا، كنت ـ من حيث لا أدري ـ أغذّي في قلبها اليانع نبتة خضراء وأرويها وأرعاها وذلك حين أُطلقها في الهواء ثم أتلقى ضحكاتها الرنّانة، أو أمسك كفيها مطوّحاً جسدها ودائراً في المكان، أو أعوم في الماء فاتحاً ذراعيَّ وفارشاً صدري لتلقي بنفسها دون رفّة خوف أو رعشة تردد، أو أشدّ كُمَّ قميصي لأحوز دهشتها مضيفاً تعليقاتي المشجعة: »معلوم.. ولو.. طبعاً..« على أسئلتها الغريبة اللجوجة، المترعة ثقة عما إذا كنت أستطيع بطح ذلك البدين المكروش أو إبعاد الشاحنة الكبيرة التي كادت تصدمنا بدفعة من يدي أو التصدي لصبيان مدرستها الذين يستقوون عليها ومواجهة آبائهم وتأديب ابن مختار الحارة الغليظ وأبيه

المتكبّر أو قلب هذا الشيء أو جرّ ذاك.

وحتى هذا وغيره، ما كان ليعدو تسلية محببة ممتعة كما يحب المرء أن يتسلى ويُدْهَش من لفظ طفله الخاطئ للكلمات أو من لثغه الحلو.. لولا أننا بوغتنا مرة، في الطريق من مدرستها إلى البيت، بثلاثة أو أربعة رجال غرباء، اندفعوا من سيارة رمادية، وأحاطوا بي. حاولتُ مقاومتهم فعجزت. عندها، بين شدٍّ وضرب وممانعة وصراخ، التفتُّ باحثاً عن ابنتي فوجدتها لصق الحائط: كانت تقف فزعة، مبهوتة، كأنما أصيبت بالخرس. تنظر إليَّ بمقلتيها السوداوين وقد تعكّرتا كما لو خبا فيهما شيء عظيم، أو راح قصر شاهق من زجاج ملوَّن يتكسَّر في قلبها الصغير الغض وينهار...

الوعر
الأزرق

الآن فقط، وسط المياه الزرقاء، على مسافة أبعد من قدرتي، وأنا أسفح، صامتاً، ما تبقّى من عزمٍ لديَّ لألحق بها.. أدرك أنني أخطأت خطأ مميتاً إذ قبلت دعوتها.

ومع كل ذراع أخبط به الماء، آملاً في النجاة، يعضّني لوم بعد لوم فينهكني ويزيد من اضطرابي: »ولِمَ قبلت يا سعيد!؟ لِمَ قبلت! لو تريثتَ قليلاً، أو فكَّرت لحظة لكانت عدلتْ عن دعوتها ربما، أو استطعتَ اختلاق ذريعة ما، أية ذريعة ولو واهية، وانتهى الأمر دون أن تجد نفسك هكذا، في خضم مواجهة لا تعرف كيف تنجو منها..« وأجاهد دافعاً جسدي نحو الشاطئ، هارباً من تقريع نفسي، فلا أقوى. لكأنما الملامات، إذ يعي المرء غلطته، تتجمّع عليه لتنهشه نهشاً كما يفعل سمك القرش بجثة مدماة.

حقاً كيف قبلتُ دعوتها!؟ كيف لم أمتنع وأنا أعرف

تماماً أنها ابنة الشواطئ والبحر، الأمهر ضمن مجموعتنا في السباحة، وأنا وليد الجبال والوعر، الحابي في الماء كالأطفال!

وما يثير الاستغراب في قبولي أن أصدقائي أيضاً كانوا، في كل رحلة، ودون طلب مني، يحرصون على اختيار الشواطئ الرملية، متدرجة العمق، كي أتمكّن من اللهو في الماء دون خوف من غرق، إذ كنت بينهم الوحيد الجاهل بالسباحة والعوم في المياه العميقة.

وبالطبع، ما كانوا، بسبب من جهلي السباحة، ليلازموني على تخوم الرمال، بل كانوا يمضون في العمق متسابقين، تموج ضحكاتهم ويصطخب صياحهم، فأمكث، مفرداً، وسط مسكبة ضحلة من المياه، متأملاً قوتهم وجرأتهم لهنيهات، إلى أن أغفل عنهم لاهياً مع وحدتي، أرشق الماء بالماء حتى أملّ، أو كنت أنظر إلى الأمواج كيف تندفع بقوة بداية، ثم تخور على الحصى مزبدة إلى أن تغور بين الرمال وتتبدد..

في فسحات الوحدة تلك، بدوت لنفسي ثقيلاً، بليداً، مثل دبّ. أدور في المكان كسجين، عاجزاً سوى عن إرسال بصري نحو الأعماق المتلألئة، صافية الزرقة، واشتهائها. كم عزّ عليّ بقائي أسير جبني، وكم لعنت

نفسي: »كيف يستطيعون العوم ولا تستطيع!؟ جرّب، في أسوأ الأحوال لن تغرق هنا« ورحت أجرّب. حاولت وفشلت، ثم حاولت وفشلت.. إلى أن رأف البحر بيّ فعوَّمني على صدره.

وجننت!

ما تركت الماء بعدها إلا لضرورة قصوى. هنا مملكتي. كأنما اكتشفت لعبة لا يعرفها الناس اسمها: السباحة! عومي شجعني على العوم. ذراعاً بعد ذراع شرعت أتسلل نحو العميق الأزرق، بعيداً عن حظيرة مسكبتي الضحلة، ثم أسارع إلى الشاطئ نشوان، مثلما كنت أدبّ، في طفولتي، على حواف الجبل الضخم ثم أهبط إلى سفحه حالماً بالصعود إلى قمّته، يوماً.

أأغراني البحر حتى غامرت كمجنون؟

أعترف بأن البحر خلبني وسلب روحي. شيء مجهول فيه سحرني. شدّتني إليه لذّة غامضة. ربما كانت لذّة الإغتسال من جبني وعجزي. ما إن ينسحب قاعه من تحت قدميّ وأعوم، حتى يجفل قلبي ثم يغرّد. ومن تلك المسافة المجهولة المثيرة، بين القاع وقدميَّ، ولد عشقي، حتى بتّ، إذ أعود إلى البلد، سارحاً في المراعي، مستلقياً

علـى الأعشـاب، أشـعر بـأن تلـك السـهول، متماوجـة الخضرة، هي بحار أيضاً.

بلى.. أغراني البحر. غير أن اندفاعي الحاسم، مثل موجة، لم يكن بسبب من إغرائه فحسب.. في ندهتها، حين كنا قبل دقائق على الشاطئ، دعوة لا تقاوم. كنت خارجاً لتوي من الماء آن صفّقتْ مهلّلة: »رائع يا سعيد.. رائع!« ثم ندهتْ بصوت راغب ودود: »أتسابقني..؟«. دون لحظة تريث، استدرت عائداً: »تعالي«. طارت كفراشة وحطّت إلى جانبي. تجمّع أصدقاؤنا مشجعين، وعدّوا: »واحد.. اثنان.. ثلاثة..« خوّضنا بضع خطوات، مبعثرَين الماء والضحكات، ثم غطسنا معاً.

وأعترف ثانية، بأنني ما عشت دقائق كنت فيها ذاتي كما في تلك الدقائق من شوط الذهاب.

في برهة، حين ندهتْ، خرَّ الدبّ صريعاً. ولحظة استدرت عازماً: »تعالي«، انبسط البحر أمامي كسهول البلد الخضراء. ومعها، حين خوّضت، انعتقتُ من مسكبة الماء الضحلة دفعة واحدة. وما إن غطسنا حتى غابت الدنيا كلها. خصلة الماء، الفوّارة الضّاجة بين جسدينا، صارت البحر كلّه. صاخباً، باذلاً من الجهد ما في روحي

علـى الأعشـاب، أشـعر بـأن تلـك السـهول، متماوجـة الخضرة، هي بحار أيضاً.

بلى.. أغراني البحر. غير أن اندفاعي الحاسم، مثل موجة، لم يكن بسبب من إغرائه فحسب.. في ندهتها، حين كنا قبل دقائق على الشاطئ، دعوة لا تقاوم. كنت خارجاً لتوي من الماء آن صفّقتْ مهلّلة: »رائع يا سعيد.. رائع!« ثم ندهتْ بصوت راغب ودود: »أتسابقني..؟«. دون لحظة تريث، استدرت عائداً: »تعالي«. طارت كفراشة وحطّت إلى جانبي. تجمّع أصدقاؤنا مشجعين، وعدّوا: »واحد.. اثنان.. ثلاثة..« خوّضنا بضع خطوات، مبعثرَين الماء والضحكات، ثم غطسنا معاً.

وأعترف ثانية، بأنني ما عشت دقائق كنت فيها ذاتي كما في تلك الدقائق من شوط الذهاب.

في برهة، حين ندهتْ، خرَّ الدبّ صريعاً. ولحظة استدرت عازماً: »تعالي«، انبسط البحر أمامي كسهول البلد الخضراء. ومعها، حين خوّضت، انعتقتُ من مسكبة الماء الضحلة دفعة واحدة. وما إن غطسنا حتى غابت الدنيا كلها. خصلة الماء، الفوّارة الضّاجة بين جسدينا، صارت البحر كلّه. صاخباً، باذلاً من الجهد ما في روحي

من توق، رحت أدفع ذراعاً بعد ذراع، وساقاً خلف ساق. لا انسحاب القاع شغلني، ولا المسافة المجهولة همَّتني. كنت أمضي رامحاً كما لو نحو الشاطئ.

غير أن الشاطئ كان خلفي، وخلفي كان يرتسم مصيري!

فما إن أدرت وجهي، ولمحتُ الشاطئ كيف ينأى فارّاً بالأصدقاء.. حتى تملّكني الرعب: »كيف قطعتُ تلك المسافة! وكيف سأعود؟!« التفتُّ إليها لأخبرها عن تعبي، بادرتني: »أما تعبت؟« أنكرتُ مكابراً: »أبداً«، غير أن لهاثي المتلاحق كذَّبني. عاودتْ بنبرة شاكَّة: »إذا تعبت أخبرني« وأضافت ممازحة: »لأنك غلبتني« ثم فوجئتُ بها، كأنها استشعرت حالتي، تنقلب بحركة رشيقة، عائمة في المكان، مثبّتة عينيها القلقتين عليَّ. قالت لترشدني دون أن تلفتني إلى مخاوفها: »أنا حين أتعب أنقلب على ظهري فأعوم من تلقائي دون جهد« ولتعلّمني، انقلبتْ على ظهرها فانبسط لها الماء فراشاً من حرير. »تعال نرجع« هتفتْ وهي تجدّف بساعديها. »هيا« صرختُ كي أخفي عنها فزعي »لنعدَّ. واحد.. اثنان.. ..« وخنقتني ملوحة موجة جعلتني أسعل وأتفّ.

اندفعتُ، وقد جرَّحني ضعفي، فانسابت موهومة باندفاعي. كدت أستغيث: ساعديني، وخجلت. ثم عزمتُ، من ضيق صدري، لكنني تراجعت. كانت روحي تدفعني للسباحة وجسدي يثنيني. وبين تنازعين عنيدين، استطالت المسافة بيننا وامتدت. لكأنما كنتُ أراوح في مكاني في حين تغذُّ منسابةً.

وإذ أجهد الآن، بشقّ النفس، ساعياً خلفها، متشوقاً للوصول.. أتلفّت حولي، وقد بتّ وحيداً في هذا العمق، فلا أجد غير مياه تتماوج في مياه. لا صخرة. ولا رمل. ولا متكأ. أشجع نفسي فلا تجرؤ. إبطاي يتخلّعان من الألم، وساقاي تلوبان تحتي، واللوم لا يكفّ: »ولِمَ قبلتَ يا سعيد؟ لِمَ قبلت!« أقرّع نفسي وأنا أحاول رفع جسدي الثقيل فيهبط. أعاود رفعه فيغوص. كأني وسط حوض من الزيت. أستنجد من يأسٍ بآخر مَنْ تبقى لي: يا سعيد! ثم أخبط خبط عشواء، مشتهياً، في ومضة، مسكبةَ الماء الضحلة، حرارةَ حبّات الرمل، بياضَ الزبد فوق الحصى، القاع الراسخ تحت قدميَّ.. أرفع يدي مستغيثاً، منادياً، فلا يصل صوتي. أتعلّق بزرقة السماء، وأتلفّت حولي، تخنقني الملوحة. أجاهد منقلباً على ظهري، فأغطس كصفيح من المعدن. أتخبّط بكل ما تبقى من عزمي.. ثم

أبكـي. أبكـي صـارخاً، مُوَلْـوِلاً، فيخـتلط الملـح بـالملح. يـا أمـي.. أنـده وقـد حجبـت عينـيَّ غشـاوةٌ، لـم أعـد أرى غيـر الشـاطئ الرملـي البعيـد، فوقـه الأصـدقاء، يعومـون تـارة، ويغطسون أخرى، كما لو كانوا في النزع الأخير.

العصْبة

من ثقب صغير في العِصبة، بحجم سُمّ الإبرة، كنت ألمح طيفها وقد زاغ بين طيوف رفاقي، فأتجه صوبها، مناوراً مخاتلاً أولاً، ثم منعطفاً خطفاً نحوها لأقبض عليها، وأضمّ جسدها الطري إلى صدري لا أُفلته حتى تنتزعه مني انتزاعاً.

لا أحد من رفاقي في الحارة كان اكتشف، كما يبدو، ذلك الثقب، إذ حين يأتي دور أحدهم في ربط العصبة على عينيه، تراه يميل ويتخبّط بيننا، لائباً عن وداد، وسط زعيق التمويه الذي نطلقه قرب أذنيه كي يتوه مزيداً عن هدفه، فيفشل في معظم المحاولات وينجح في القليل القليل منها، حين تجاريه المصادفات فتضع وداداً بين يديه.

وحتى حين تغيث المصادفة واضع العصبة، ويمسك يدها أو كتفها أو يلتقط طرف ثوبها.. فإنه سرعان ما ينزع العصبة عن عينيه وينظر، فإذا ما تأكّد، ركض من فوره

بيننا، مهلاً من نشوة الفوز.

انضمام وداد إلى شلّتنا وهَّج الحماسة فينا، ولوَّن لعبتنا، مضيفاً إليها نكهة فريدة ما أحسسنا بها من قبل، فصرنا لا نملّ ولا نكلّ من اللعبة ومعاودتها إلا إذا اعتذرتْ لتعب لحقها أو انسحبت جراء طلب أحد أفراد أسرتها.

وبإجماعٍ صارت وداد ـ البنت الوحيدة بيننا شلّة الصبيان ـ موضوع اللعبة وحكمها.

ترتِّبُ أدوارنا، وتُخرج عصبتها البيضاء، فتحكمها على العينين وتشدّها، ثم تتمعن في أطرافها لتضبط أي تسلل محتمل للنظر فإذا ما تمّ، انفرطنا حول المعصوب، متقافزين، ومطلقين صيحات ناعمة، حادة، نقلّد بها أصوات البنات كي يزوغ المعصوب عن هدفه: التقاط وداد من لمّتنا.

وكم تعثّر لاعب، فأكبّ على امرأة عابرة أو طفل لاهٍ، أو أحاط برجل أو داس على طرف كلب شارد فجعله ينبح بشدّة ودفعنا للتساقط على الأرض من فرط الضحك على جفلته وفزعه وهروبه العشوائي.

من بين الشلّة، كنت الأقل تعثراً وخطأ في الوصول

إلى هدفي والتقاط وداد. بل إنني، لولا خشيتي من ارتيابهم، لما أخطأت بالمرّة. وكيف لي أن أخطئ والثقب، على صغره وضيقه، يدلّني إليها ويُريني مناوراتهم ومراوغاتهم في إخفائها خلفهم؟..

ولفوزي في معظم المرات كدت أتوّج الأمهر بين رفاقي وأنتزع لنفسي المفاخرة والمباهاة، باثّاً فيهم الدهشة من ذكائي وشطارتي. لكنَّ الشكوك راحت تنمو لتفضح حيلتنا.

أقول حيلتنا، لأن وداداً كانت متواطئة معي!

أدركتُ ذلك من طريقة عقدها للعصبة حين يحلّ دوري: تفرشها على عينيَّ، ثم تزيحها وتحرّكها، بحجة ضبطها، إلى أن يقابل الثقب الصغير حدقتي.. لحظتها، وفيما فمها يداني أذني، وأصابعها منشغلة خلف رأسي، تهمس همساً رفيقاً: »شايف هيك؟« فأكتفي بنحنحة خاطفة، ثم ننطلق للّعب.

وعلى الدوام يغلبني توقي لاحتضانها، يختصر تحركاتي ويوجز لوباني، فأندفع نحوها، بأخطاء لا تُذكر، لأضمّها، ضاغطاً صدري اللهوف المضطرب على برتقالتيها اليافعتين، فتلفح أنفاسُها المتقطّعة وجهي وتُذيب

كتفيَّ أصابُعها الملتفّة، الحنون، الضّامّة.

ما من مرة ذكرتْ لي صراحة، أو أشارت ولو بكلمة، إلى حيلتنا. ولا جرؤتُ مرة على بيان فرحتي ومتعتي بسرّنا. كلانا تكتّم وتحفّظ، ومضينا، بصمت، نمارس اللعبة في اللعبة، لكأنما الإمتناع عن البوح بالسرّ والتكتّم عليه وتجاهله، حتى بين صاحبيه، يزيده متعة ويلفّه بضباب من السحر شفيف.

ما أجّج سعادتي بلعبتنا الخاصّة السرية، ملاحظتي لوداد وهي تعقد العصبة لغيري من الشلّة، إذ كانت تطويها جيّداً، وتُحكم إغلاق العينين بها، وتشدّ عقدتها إلى أن يستاء اللاعب ويشكو. ويندر، بعد ذلك، أن يفوز بالاهتداء إليها أو يتخلّص من جمعنا المتماوج حوله، فيلوب ويتخبط فيما يغشانا الضحك المجلجل الطليق.

أحسست بالخطر الحقيقي، لحظة اندفع أحمد، وكان الدور عليَّ، غاضباً محتجّاً فأوقفني، وأَحْكَمَ العصبة بيديه، معلناً انني أغشّ في اللعب، فأقسمت بأغلظ الأيمان أن ذلك ليس صحيحاً. بعدها، حرصتُ على أن أُخطئ وأتعثر وأسقط أرضاً مثيراً ضحكهم، ومتجنّباً العثور على وداد كي لا ينكشف أمرنا، فأفقد كل فرصة لضمّها.

وعلى الرغم من نظراتها المتسائلة العتوب، مضيت في تعمّد الوقوع بالأخطاء لإحساسي أنني بتّ تحت مراقبة مشدّدة، وأن فصلي من اللعبة بات محتملاً جداً. وهكذا عادت، ولو على ندرة، متعة الضمّ واللفّ ثانية.. لكنها لم تعمّر طويلاً.

إذ بين حثّ التوق للوصول إليها، وكبح العيون الرقيبة، تكشَّف تصنّعي وتعرّي، خصوصاً حين كنت أنحرف عنها بغتة، وقد دانتها يداي، في اتجاه آخر.. أو أمسك طرف ثوبها وأفلته لتوطين الوهم لدى رفاقي.

ووقع يوماً ما كنت أخشاه.

فما نهضت من حفرة إلا وانزلقت بأخرى، ولا تعثّرت بحجر إلا وسقطت بعرقلة من غيره، وما اندفعت بحثاً عن وداد إلا وارتطمت بعابر أو شجرة أو عمود حتى بتّ مثل أعمى حقيقي خلف العصبة السوداء التي أحضرها أحمد يوماً، مطالباً باستبدالها بالأخرى البيضاء، فوافق الجميع وسط احتجاجي العارم وصمت وداد المحيّر.

وليومين أو ثلاثة خلف العصبة الجديدة، أحسست ـ بعد أن كنت في الماضي الأكثر حماسة واندفاعاً ـ بملل لا

يُحتمل وضجر خانق من لعبتنا التي تبلَّدت وبهتت ألوانها، فوجدتني، لا أدري إلى أين، أنسحب من الشلّة دون أن أعود إليهم أبداً، أو أعلم إن كانت وداد قد بقيت معهم أم أنها انسحبت أيضاً.

في
حافلة
صغيرة

حين هبطنا من الحافلة وأقلعتْ، والتفتنا إليهم رافعين أيدينا.. تجمّدنا في مكانينا لثوانٍ على هذا النحو، خِلْتُ فيها أننا تحوّلنا إلى تمثالين من حجر..!

لا أنا ولا زوجتي كان يمكن لنا تقدير الموقف قبل صعودنا إلى الحافلة الصغيرة: غزارة الأمطار وهبوب الرياح، ولسع البرد خاصّة دفعنا، كمهووسين، للبحث عن سيارة أجرة تقلّنا من الشارع الذي نقف فيه إلى البيت.

كنت أحضن ابني الصغير بيد، وألوّح بالأخرى للسيارات العابرة، فيما تحثّني زوجتي على إيجاد وسيلة ركوب، أية وسيلة، قبل أن يموت الولد بين أيدينا من شدة الزمهرير.

ولوهلة، حين نظرت إلى وجه ابني، ولاحظت ازرقاق شفتيه وارتعاد وجنتيه، أحسست بأن البرد القارس سيقضي عليه حقاً إن نحن بقينا واقفين في الشارع.

أعطيت الصغير لأمه، واندفعتُ مختلطـاً بالسيارات، عازماً على إيقاف أية وسيلة تقلّنا، عامة كانت أم خاصة.

وبالفعل، جاءت حافلة صغيرة تحمل تلاميذ مدرسة وتوقفتْ علـى بعـد أمتـار منّـا. هرعنـا إليهـا، ودلفنـا مثـل ناجيين من حرب.

من كل قلبي شكرت السائق على صنيعه، وعكفت، مع زوجتي، نمسح وجه ولدنا، وننفخ على كفّيـه لتدفئتهما، نافضين عن ثيابه رذاذ المطر. عـادت الحيويـة إليـه، وراح يبتسم. طفقت زوجتـي تفكّ بعض الأقمطـة الصوفية عنـه وتلاعبه، فيما جلستُ على غطـاء المحرك، قرب السائق، أكرر شكري، وأشكو لـه مرّ انتظارنـا الطويل، مستفسراً عن وجهة سيره.

حرارة المحرك، وصغر حجم الحافلة، واكتظاظها بالتلاميذ مـن مختلـف الأعمـار أشـاع دفئـاً مسكّناً، رخيّاً، ومعـه فاحت رائحـة نفّـاذة، خاصـة، تشبه رائحـة صفوف المدارس الابتدائيـة، غير أنهـا أشدّ حدّة، وأظهر اختلاطـاً بعطن مواد غذائية، أو قلّة نظافة.

لفتنـي، وأنـا أمعـن النظـر إلـيهم، اللـون الأسـود لصدار اتهم الموحّـدة، إذ إنـه لـم يعد سـائداً فـي المـدارس،

وكذلك تهرؤ عدد منها مما يدل على إهمال أسر بعضهم بشكل ملحوظ. إلاّ أن ما أدهشني فيهم ليست هيئاتهم الخارجية، بل تتابعهم، واحداً إثر آخر، في الاقتراب من مقعد زوجتي، والتفافهم حولها!

فحين صعدنا، أفسح تلاميذ المقعد الأول المزدوج مطرحاً جلست فيه زوجتي. ولعادة فيها، كلما التقت صغاراً في أي مكان، استحضرتْ مداعباتها، وألغازها، وحركاتها المقلّدة المضحكة للأطفال.. مستعينة بصغيرها الذي استجاب هو الآخر، وبدا مسروراً كل السرور.

أيكون تجمّعهم وانحشارهم في ذلك الحيّز الضيق قرب المقعد، بلْ قُلْ تزاحماً شديداً بحيث اضطر البعض منهم، أحياناً، إلى استخدام اللكز واللكم والدفع العنيف... أيكون كل ذلك بدافع رغبتهم في المشاركة باللهو والمزاح والحركات المقلّدة؟!

تساءلت في نفسي، وأنا أتابعهم مبتهجاً سعيداً. غير أن بهجتي لم تكن خالية من ظلال قلق، كما أن سعادتي شابها بعض تنبّه، إذ رغم معرفتي بأن الوافد الغريب إلى أية مدرسة ابتدائية يثير فضول تلاميذها، ويحضّهم وجوده على التجمّع حوله، ومحاولة الإجابة عن أي استفسار لديه... إلا

أن في تجمّع هؤلاء التلاميذ شيئاً آخر تماماً، شيئاً غير الفضول المعتاد..!

ما دفعني إلى ظني هذا، ملاحظتي تمسّحهم بزوجتي، اتكاءهم على ظهرها وحضنها، ملاعبتهم لخصلات شعرها، أو ملامستها، مجرد ملامسة، ولو برؤوس الأصابع، ممّن لم يُفسح لهم في المجال للإلتصاق بها. بل انني لمحت لمحاً أحد التلاميذ، وكان الأصغر بينهم، يقرِّب وجهه من كتفيها كأنه يخطف قبلة، مما أوحى لي بأن حركاتها وإيماءاتها وألغازها ـ المثيرة للضحك فعلاً ـ لم تكن تعنيهم أو تشدّهم بقدر ما كان التنافس، فيما بينهم، على الإقتراب منها والإلتصاق بها، هو شاغلهم الأكبر!

وما كنت لأعبأ بالأمر كثيراً، خصوصاً وقد شدّتني ضحكات ولدي وهو يلوذ بأمّه، دافناً رأسه في صدرها كلما حاولتْ إبعاده عنها.. أو يندفع، دون خطأ واحد، في تقبيل ما تحدّده بالكلام: أرنبة أنفها، شحمة أذنها، عينها، أو غير ذلك... لولا أن أثار استغرابي أمر آخر لدى التلاميذ: عيونهم ونظراتهم!

ففي حين كانت عيون بعضهم تثبت في محاجرها،

مصوّبة نحو ولدي تصويباً صريحاً، مستغرقاً، لا تحيد عنه.. دأبت عيون بعضهم الآخر على التنقّل بينه وبين أمّه. تنقّلاً متخطّفاً، منتظماً، في حركة رتيبة كإيقاع الساعة حتى ليحسب المرء أنها خُلقتْ لهذه الحركة فحسب. أما نظراتهم، فقد ملأتني إحساساً قوياً في أنها لا تُساير أبداً ما يجري من حركات، ولا تنمّ عن أي انفعال بها، بل تُرسَل بعيداً، على نحو غريب، مشوّش، مدفوعة باشتهاء غامضٍ لم يكن لي أن أعرفه أو أقدّر سرّه إلا بعد أن هبطنا من الحافلة.

فآن التفّ السائق حول الساحة متّجهاً شرقاً، رجوته التوقّف قليلاً لأننا نقصد الجهة الغربية.

وما كادت زوجتي تناولني الصغير، وتتخلّص من زحام التلاميذ بمداعبة رؤوسهم والابتسام لهم، ثم تهبط وأهبط خلفها شاكراً السائق.. حتى اندفعوا إلى النوافذ المقابلة لنا، فبدت وجوههم، لاضطراب تزاحمها وشدّة التصاقها بالزجاج المغبّش، كعصافير ملوّنة توّاقة.

أقلعت الحافلة، ورفعنا أيدينا لنلوّح لهم مودّعين، لكننا تجمّدنا دون حراك، كما لو تحوّلنا إلى تمثالين من حجر، ونحن نقرأ على الجهة الخلفية للحافلة بخط باهت،

كاحت: دار الأطفال اللقطاء.

سلاميتان
من ورق

حين غادروا منزلها، وخلت لنفسها، انفرد بها السؤال المرّ الذي حار الشباب في معالجته مثلما حارت هي أيضاً: »وماذا لو لقطوني؟!«.

قبل قليل كانوا هنا، معها، يفيضون بالشرح، وتفيض بالإصغاء. حكوا لها عن ضرورات إيصال الرسالة. عن الأوضاع القلقة، وعن حيرتهم في اعتماد طريقة، ثمّ عجزهم عن إيجاد بديل عنها: »ليس لنا غيرك. أنت صلتنا الوحيدة، المباشرة، به« وعرضوا مخاطر عدم وصول الرسالة، المخاطر المترتّبة عليهم، وعلى زوجها، في ظلّ الحملات الجديدة، عن تقديرهم لوعيها وحرصها. وحكت لهم بإسهاب عن تفاصيل زياراتها، والسجن، والحراس، والوقت... »باليد، قالوا لها، لا تغامري بطريقة أخرى« واستفهمت منهم عمّا عساها تفعل إن فشلت »حاولي أقصى جهدك« وعمّا إذا كانوا يريدون ردّاً منه، وطريقة الإتصال بهم، وإذا كان من الأفضل استشارة زوجها قبلاً: »لا وقت

أبداً. أوصلي الرسالة إليه مباشرة، ودون جواب منه«.

بحثوا، وبحثتْ، كل التفاصيل والترتيبات. نقطة واحدة حاولوا، بداية، الاتفاق عليها، ثم فضّل الشباب أن يتركوا لها اختيارها لكونها الأعلم بدقائق الزيارة، حيثياتها، ومستجداتها: كيف ستسلّمه الرسالة؟

- »هذه اتركوها لي، قالت ساهمة، لا بدّ أن أجد طريقة«

عند الباب، وفيما يصافحونها بحرارة ويشدّون على يديها مودّعين، كان لا مناص للسؤال المرّ، السؤال المعلّق طوال اللقاء، والذي جهدوا في تأجيله رغم هجسهم به، وجاهدت في كتمه رغم ما يمضّها منه.. من أن ينبجس كزلّة لسان: »وماذا لو لقطوني!؟«.

- »إياك...«

اندفع أحدهم محذّراً، ثم دارى اندفاعه:

- »أعني.. حاذري. فإذا حدث...«

والتفت إلى صديقيه فاركاً أصابعه، متنحنحاً، كمن يبحث عن منفذ أو معين.

لحظتها، لا تدري كيف، قالت بنبرةٍ استغربت فيما بعد صدورها عنها، كأنما إحساسها بحرصهم الشديد عليها

دفعها لإبداء جرأة على نحو ما: »وهذه، أيضاً، اتركوها لي«، ثمّ التفتت، بعد أن غادروا، لتواجه، وحدها، غول السؤال، دون أن تجد له جواباً قطّ، أو مؤنساً لها على مواجهته، لكأنما بعض الأسئلة خُلِقَتْ لتبقى هكذا أبداً، تقضُّ الروح دون ملاذ.

* * *

كانت الرسالة بحجم سلاميتين من إصبع!

على ورق رقيق، من نوع ورق الرسائل، كُتِبَتْ بعضُ الجمل على الوجهين بحبر أسود وأحرف صغيرة واضحة. انتحت ركناً في غرفتها، وشرعت تقلّب الورقة مرات ومرات، شادّة معظم خيوط تفكيرها إلى نقطة بعينها: كيف يمكن تسليمه الرسالة باليد؟

استعرضت زياراتها كلها، عبر السنوات الماضية، وتفحّصت أدقّ التفاصيل فيها... لم تجد طريقة آمنة. كلّ أغراض الزوّار من أطعمة وملبوسات تُنبش وتُفتش في غرفة خاصة قبل تسليمها للسجين. حتى بعض أقراص الكبة -لاحظت ذلك مرة- تُفلق ويُنظر في جوفها. بعض الملبوسات، الداخلة أو الخارجة، تفتق أطرافها إثر

وشاية أو ارتياب خاطر. تُفتح الأوعية المغلقة وتفرّغ في أطباق.... سجل حافل مدهش من المناورات المبتكرة والتقصي الدقيق ترويه جدران تلك الغرفة »وفوق هذا، قالت لنفسها، ما أدراني إن كانت ستصله الأغراض أم لا؟! فما من مرة إلاّ وبلعوا نصفها!!«.

فكَّرت أن تخفي الرسالة في يدها، ثمّ استخفّت بفكرتها. إذ كيف تهربها له عبر شبكين ـ كشباك خم الدجاج ـ يفصلهما شرطي رقيب؟! وحتى حفظ كلماتها لا يجدي. فإذا كانت تحار طوال الزيارة كيف تبوح بكلمة واحدة في قلبها خجلاً من الرقيب المبحلق، فكيف لها أن تسرد رسالة بهذه الخطورة؟!.

أتراها عجزت حقاً، خلال الأيام التي سبقت زيارتها، في العثور على طريقة... أم هو الخوف راح يرشح إلى قلبها حتى انكشفت أمامها، دفعة واحدة، كل المخاطر، وجعلتها تقلع عن المهمة، بل وتمضي في تأنيب ذاتها: »مجنونة يا سوسن حتى ترمي بنفسك وبزوجك في هاوية لا يعلم قرارها إلاّ الشيطان! ما الذي حدث لعقلك كي توافقي؟! أتظنين الزيارة نزهة! ألف عين بصّاصة حولك. ثمّ فكّري بنفسك قليلاً. ذابت عافيتك وأنت تنتظرينه. بلى. ولِمَ الكذب؟! أَوَلَمْ تعدّي الأيام عدّاً؟ كم

مرة، في الليل، نهضت من فراش وحدتك، فتحتِ النافذة، وندهتِ: يا عدنان، ثم عدت مكسورة من خيبتك؟! كم مرة، حين دلف السقف ولوى درابزون الحديد وتخلّعت مفاصل الباب وثُقبت المغسلة وثقلت عليك أسطوانة الغاز.. كنت تلعنين الساعة وعمرك والدنيا، وتتمنين: آه لو كان عدنان معي! أَبَعْدَ هذا تدفعين به وبنفسك إلى غياب لا أحد في الدنيا يعرف نهايته؟!«.

ويأفل النهار ليسطو الليل عليها..

ما مرت ليلة، من الليالي السابقة على زيارتها تلك، إلاّ ونهزت من فراشها إثر كبسة منامات موحشة تدوسها كقطيع ثيران هائجة. تصحو لدقائق، ثمّ تعاود نومها ليعاودها قطيع الهواجس. في الليلة الأخيرة، استوت عازمة: »يا جماعة اعذروني. أُقدّر أوضاعكم.. وأقدّر ظروفكم.. ولكن اعذروني. فليس في استطاعتي أبداً«.

كادت في الصباح أن تمضي إلى زيارته مطمئنة في ظلّ تساؤل بسيط: »وما ذنبي أنا إذا لم يكن من مجال لتسليمه الرسالة باليد؟!« لولا أن تعثّرت في الساعة الأخيرة بتساؤل معاكس، وبسيط هو الآخر: »وما أدراكِ؟! ربما كان عدنان بأمسِّ الحاجة إلى الرسالة!«. وبين تساؤليها طفقت، ببطء ورويّة، تضبّ أغراضه وتحزمها علّها تفيء إلى قرار

وترتاح. بعد أن انتهت، أخذت القرنفلة البيضاء، ضمّتها إلى شفتيها وهمست لها ـ كعادتها قبل كل زيارة ـ منديّة وريقاتها بقبلات اشتياق لا تفتر. لحظتها، خطفتْ خاطرَها فكرةٌ مدهشة. صاحت: »وجدتها يا شيطانة« وطفقتْ تلوب وتتقافز في البيت: »والله وجدتها!«.

كان أول ما فكّرت به، إحداث تغيير فيما اعتاد عليه لتثير اهتمامه وتشدّ انتباهه، ولذا اختارت قرنفلة حمراء عوضاً عن تلك البيضاء التي درجت على حملها له في كل زيارة »أتراه سيلحظ هذا التغيير؟« تساءلت في سرّها وهي تجلب الرسالة من درج الخزانة وتسلّ دبّوساً من ياقة ثوبها. قلّبت الورقة، فلمحت في نهايتها مساحة نصف سطر فارغة. وَمَضَ خاطر لهوف: »لِمَ لا أكتب له؟« دون طويل تفكُّر كتبت بلون حبر مختلف: »شو اشتقتلك«. لاحظت أن بالإمكان إضافة كلمة أخرى، فأضافت: »يا ملعون« ثم لفَّت الرسالة بدقَّة حول الدبوس. باعدت أولاً بين وريقات القرنفلة، وطفقت، داخل الكأس على امتداد الساق، تغرز الدبّوس شيئاً بعد شيء حتى اختفى. أعادت لملمت الوريقات. حرّكت الزهرة ورجَّتها.. رفعتها وخفضتها بشيء من الشدّة.. أدارتها وقلّبتها.. لم يفتضح السرّ!

* * *

لو حمَّلوها جبلاً لكان أخفَّ عليها من مهمتها تلك! غير أنها مضت، تداخلها مشاعر بكر لم تذقها من قبل. ورغم أن الشيطان الأزرق ـ كما سرّت لنفسها ـ لن يكتشف خطتها.. فإن تفكيرها لم يكف، طوال الطريق، عن تحذيرها: »لا ترتبكي. كوني طبيعية. طبيعية جداً. لا تلحي على الشرطي زيادة. ابقي الزهرة، كعادتك، إلى آخر الزيارة. إن أتيح لك قدّميها.. وإن لم يتح فليكن. أقلّ اضطراب سيرتابون. تعرفين أن الزائر والسجين مشبوهان خلقة..«

كان المساعد الأول، المشرف العام على السجن، يوزِّع رجال مناوبته، حين وصلت. قال وهو ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين استياء: »كم مرة قلنا لك، يا ست سوسن، لا تبكّري؟!« والتفتَ قبل أن تردّ متوجهاً إلى شرطي قربه: »هات لنا السيد عدنان أفندي!« وتابع شغله.

سلّمت الأغراض لغرفة التفتيش، مبقية الزهرة في يدها، ثم انتحت جانباً.

في كل زياراتها السابقة كانت تنهض على رؤوس

أصابع قدميها مرسلة بصرها إلى أقصى نقطة داخل السجن تمكّنها من رؤيته لتسرق لحظات إضافية إلى الوقت المخصص. في هذه المرة لَبَدَتْ عند زاوية الشبك لائبة بنظرها في الأنحاء حولها مثل أمّ تبحث عن ابنها الضائع. المشهد ذاته: المساعد الأول يجول في الطرف الآخر من الشبك، رجاله يهرعون لأخذ أماكن توزّعهم، فيما يدلف أحدهم إلى الفسحة بين الشبكين متّخذاً هيئة الحريص.

- سلامات..

بوغتت بزوجها كما لو لم تكن تنتظره!

- سلامات. كيفك؟ طمّني؟

وارتبك الكلام.

في دقائق كان عليها أن تحادث زوجها، وتُسكتَ قلقها الفوّار، وتتفرس في الوجوه المحيطة، وتقتنص غفلات الشرطي الحاجز.. بحيث راحت تقدّم جملة وتؤخّر أخرى، تجيب عمّا لم يسلها وتكرر ما استفهمت عنه.. حتى استكان لها الأمر. برهتها، شرعت تتفنَّن في الإلماح له: غمزت بجفنها تارة. لعَّبت حدقتيها مع ابتسامة دالّة تارة أخرى. مرّرت أصابعها على الوريقات ذاكرة أسماء

وكلمات أغنيات تحمل معنى إلماحها. صمتت بغتة لتلفته. مسحت على الكأس والساق الأخضر... بذلت ما في وسعها كلّه ليعلم أن في قرنفلتها، هذه المرة، رسالة له.

وما كانت لتستسلم للإطمئنان إلى كونه فهم ما ألمحت إليه لولا أن لاحظتْ رفّات جفنيه، وهزّاتٍ من رأسه، وابتساماته، وغمزاته أحياناً، بل وتعليقه المندهش »حمراء هذه المرّة على غير العادة!«.

ولكن من عساه، في حمّى الإنزلاق السريع المتتالي لدقائق الزيارة.. وغمرة التوق المحجَّز.. وسط مستنقعٍ من الريبة والحذر.. واستدعاءٍ لهوف لذاكرة فارّة... من عساه يوقن اليقين كله أأدرك زوجها تمام مقصدها أم هو لم يدرك!؟ من عساه يفهم، في لحظات محروقة كتلك، السرّ المغلَّف بالقرنفل!؟ إذ ما كاد يودّع أحدهما الآخر، ويستديران ماضيين باتجاهين متعاكسين، وتلتفتْ، كعادتها، لتقطف آخر قطفة من مرآه.. حتى عوى الجنون في كيانها كلّه! كادت تهجم صارخة أنْ لا، متجاوزة المسافة الفاصلة بينهما ورجال الشرطة والحاجز المشبّك، غير أن المباغتة شلَّت روحها وجسدها حين رأت المشرف العام وهو يشكل زهرة سرّها الحمراء على

صدره.

المسافة

أذهلني، وقد فتحت فدوى الباب، أن تتكئ على حافّته، متسمّرة، لاوية عنقها بعض الشيء، ثم ترسل نحوي نظراتها، من دون أن تندفع إليَّ، على عادتها، لتطوّق عنقي وأضمّ فرحتها وضحكتها!

فقد دأبتْ، مذ أدهشتها قدرتها على الركض، في نحو الثالثة من العمر، أن تطلق ساقيها الصغيرتين لاستقبالي كلما زرتهم، إلى أن توطّدت عادتها الحلوة تلك، فلم تكفّ، بعد بلوغها الخامسة، عن ترصّد زياراتي، والإلحاح على أبيها لمعرفة موعد قدومي، موسِّطة أمها أحياناً، عادَّة الأيام، صابرة على بطء تواليها وثقله.. فإذا ما حلَّ اليوم الموعود، التصقتْ بزجاج النافذة المطلّة، مترقبة منتظرة، إلى أن أبدو لها من بعيد. عندها، تخفّ خارجة من الدار، موزّعة نداءاتها: »إجا عمي يوسف... اجا عمي يوسف..« منطلقة على الدرب الترابية الوعرة، الواصلة بين دارهم والطريق الرئيس، فينبسط قلبي تحت قدميها الحافيتين

المتطايرتين، حتى تقفز إلى صدري، راشّة ضحكاتها وضجيجها، فأحضنها دائراً بجسدها النحيل الغضّ، ومعنا، على جانبي الدرب، تدور الصخور السوداء، والسهول، ولهاثها، وشجيرات الزيتون، وقبلاتها، وشتلات الدوالي، والقرية كلها..

ما من زيارة استطعت فيها أن أباغتها بقدومي كي أجنّبها التعثر والسقوط والخدوش التي تصيب ساقيها وراحتيها إثر اندفاعها الرامح نحوي. ولا تنبيهات والديها وتحذيراتهما نفعت في كبح انطلاقتها الجموح إلى ذراعيَّ المشرعتين، حتى باتت طريقة لقائنا متعة لنا جميعاً، نرقب حلولها، ونحثّ عليها، رغم مخاطرها، مع كل زيارة لي أوائل الربيع.

ولا أدري لم رغب أبوها، مرة، في الإحتيال عليها. فجاريته رغبة مني في ملامسة دهشتها وتملّي بغتتها، فاتفقنا على موعد مغاير للذي سيخبرها عنه. وبذا، تمكّنتُ من الوصول إلى الدار، وقرع الباب والدخول، مباغتاً فدوى بحضوري.

لكن ما حدث وبّخنا، إذ مكثت في مكانها، ورمقتني بعينين مترعتين بالخيبة والعتاب، ثم بكت، من غير صوت، بكاء مراً حزَّ قلبينا، مما دفعني للخروج من الدار

على الفور، والوقوف على مبعدة، ثم مناداتها للإنضمام إلى يديَّ المفرودتين عن آخرهما.. وحين ركضتْ وطوَّقت عنقي، حلَّقتُ بها كما لم أحلّق يوماً، معاهداً نفسي وبهجتها ألاّ أكرر حيلتي أبداً.

ما رسَّخ طريقة لقائي بفدوى وجمَّلها، مواظبتي على زيارتهم، وحرصها على استباق أفراد أسرتها في ملاقاتي للإنفراد بي والتحدث معي، في تلك المسافة على الدرب الترابية، عن ألعابها ومشاكلها ومشاغلها الصغيرة، بحيث صار لقاؤنا علامة في الزيارة وجزءاً من متعتها، لا تكتمل إلا بركضها العاصف، الضاجّ، خاصة بعد أن امَّحت عثراتها تماماً لبلوغها نحو العاشرة من العمر.

ما كان لي، بعد عامين اضطررت فيهما إلى الانقطاع عن زيارتهم، أن أستطيع إعلام صديقي بموعد مجيئي إليهم، فتركتها مفاجأة.

في اللحظة التي قرعتُ الباب، فطنت لفدوى. هرولت متراجعاً على الدرب. ثم وقفت ـ كعادتي ـ على مسافة، متوجهاً نحو الدار، فارداً ذراعيَّ. فتح صديقي الباب، وما إن لمحني حتى التفت نحو الداخل منادياً: »فدوى.. اجا عمك يوسف« ثم أقبل مرحباً بي.

لم أتحرك، ولا غيَّرت وقفتي. لكنني أحسست، حين بانت فدوى، بأنني تحوّلت إلى فزاعة للطيور، إذ شخصتْ نحوي لوهلة، مرسلة ابتسامات نديَّة، ثم التصقت بحافة الباب، مطرقة، ساكنة، على نحو أثار قلقي عليها!

تمعَّنتُ في ساقيها وقدميها، فلم ألحظ ما يدلّ على مرض أو إصابة! التفتُّ إلى صديقي مستغرباً، هامَّاً بسؤاله عن السبب.. غير أنني انتبهتُ إلى أن شجيرات الزيتون حولي قد شبَّت عما تركتها ونمت، وأن شتلات الدوالي تطاولت معرِّشة، فأسبلتُ ذراعيَّ وتساؤلي، ورحت أمشي مع صديقي بخطى بطيئة، متجهاً نحو الدار، قاطعاً المسافة التي بدت لي أطول قليلاً في هذه المرّة.

الخانم

في كل مرة كان سقوطه يحرّض فضولنا، فننشدّ إليه، ونتجمّع حوله مبهورين، لكأننا نراه للمرة الأولى!

وفي كل مرة، أيضاً، كان »أبو علي« - صاحبه - يبدأ بالحسنى والمسايرة، ثم يغضب ويثور، إلى أن ييأس تماماً. عندها، يلتفت إلى أقرب صبي منّا، طالباً إليه القيام بالمهمة ذاتها التي حفظناها لكثرة ما تكررت.

المارّة من أهل الحارة لهم حصة في الحادث، ولذا تراهم يتوقّفون لهنيهات كي يسدوا خلالها النصح »لأبو علي«: »سايسه يا زلمة.. سايسه بيقوم«... »فك رباطه بالأول.. بيختنق هيك« أو ترى بعضهم يهمز الشفقة في قلبه: »على مهلك يا أبو علي.. هادا روح متلنا«.. »له.. له.. ما بيجوز ضربه يا شيخ« وفي حين يتوقف بعضهم، يتابع معظمهم الطريق مستعيدين ما حفظوه من أمثال وحكم ربانية عن الرأفة بالحيوان.

ونحن، بدورنا، لا ندع فرصة الاجتهاد للكبار، فترانا نتبارى، هامسين بداية، في تداول الأسباب المؤدية لسقوطه، إلى أن تحتدّ خلافاتنا فتعلو أصواتنا، مسفّهاً بعضنا آراء بعضنا الآخر، بحيث يندفع أحدنا ـ للبرهنة على صحة رأيه ـ إلى سؤال »أبو علي« بنبرة واثقة، وعلى مسمع من رفاقه: »عمّي.. مو منشان كذا وقع حصانك؟« فيأتيه الجواب سريعاً: فرقعات من السوط الجلدي وشتائم غضوبة لا تستثني أحداً من أسرة السائل.

* * *

جسامة حصان »أبو علي«، بروز عضلاته، خبب مشيته، وقدرته على جرّ الطنبر مهما ثقلت حمولته.. جعل من سقوطه المتكرر، وعلى مقربة من دار عبّود في معظم الأحيان، تلك التي تقع على بعد دور قليلة من مخرج حارة »أبو علي«، يحضّنا على التساؤل عن سرّ هذا المكان بالذات، خصوصاً وقد لاحظنا انبساطه، وخلوّه من حجارة ناتئة أو مادة زيتية أو حفرة مهملة..

في المرات التي أتاحت لنا المصادفات مشاهدته قبيل سقوطه، انتبهنا إلى أمرٍ: ما إن يخرج من الحارة الضيقة

إلـى الـدرب الفرعيـة، سـاحباً بقـوة الطنبـر المحمّلـة خلفـه، حتى يسقط أرضاً! لم يكن يطوي قوائمه مـائلاً بجسمه ثم يستلقي على الأرض.. بل تـراه يهوي بكلّيتـه دفعـة واحدة. يغار نحو الأرض إغارة بادية كأنه يرمي بنفسه، أو لكأنمـا استلّت قوةٌ خفية قوته الظاهرة.. ولحظتهـا، نرمـي شـواغلنا الرتيبة لنتفرغ للشاغل الحيّ!

كالعاشق ينكبُّ »أبو علي« على حصانه، فيشرع في مسح جبهته وفكّيه، والتربيت على عنقه، وتدليك عضـلات قوائمه، حافزاً إياه على النهوض بتصويتات يصدرها وشدّ رفيق للرسن.. غير أن الحصان يظل متشنجاً، ليس ما يدلّ على الحياة فيه سوى شخير محموم، ونفثات بخـار كثيف من منخريه.

ويعاود المسعى..

فيداور وينـاور فـي فكّ الأربطـة المتشـابكة، وسـحب الأحزمـة المفتولـة مـن تحـت حصـانه ليحلّـه منهـا، دون أن يفلح.

ينحنـي علـى ذراع الطنبـر، يرفعـه بعـزم، ويلعلـع بسـوطه فـي الفضـاء، مطلقـاً صـيحات خشـنة، عريضـة، حاثّة.. لكن الحصان لا يتزحزح!

عندها، يربدُّ وجهه، فيتراجع خطوتين، رافعاً قبضة السوط إلى ما فوق رأسه، وهاوياً به على جسد حصانه، فتتشقق جلودنا من المشهد الرهيب.

بين أزيز السوط، واختلاج عضلات الحصان، وشتائم »أبو علي« الفاضحة، وجفلتنا.. يتدخَّل الرجال من المارة بين ناصح ومتلهله ومعترض، ساعين إلى رفع الحصان وحثِّه، فيما ينبري أحدهم ليقول بعصبية متوددة: »يا أخي حصانك فحل! يعني إذا ما شبعته ما بيخدمك« فيردّ عليه »أبو علي« ردّ العارف ساخراً: »ولك يا حبيبي المصيبة أنه ما بيشبع لا من فوق ولا من تحت كمان!« ثم ينسحب إلى جانب الدرب ويقعي لنحو دقيقة مستسلماً ليأسه.

على غفلة، ومن احتدام اللغط، يصيح »أبو علي«: »اتركوه يا جماعة.. منشان الرسول اتركوه« ثم يمسك ذراع أقربنا إليه وينبر آمراً »روح طيران.. هات لي الخاتم بسرعة«

والخاتم نعرفها، بل ونتشوَّق كي يطلب منّا احضارها، فنطير جماعة متسابقين إلى دار عبّود، نخبره لاهثين، فيمتطي فرسه، ونمتطي الريح خلفه..

*   *   *

رأساً على عقب يتحوّل الموقف!

فما إن تهلّ فرس عبّود البيضاء، ونحن نعدو خلفها صاخبين، ثم يلتفت الجمع إليها ويبدو المشهد لحظتذاك مثل عروس تُزفُّ.. حتى يأخذ الحصان بالتململ. ومع اقترابها رهواً من المكان كنّا نسمعه وهو يطلق صهيلاً حاداً، مموسقاً، متكرراً.. لائباً برأسه وحاقّاً بها الأرض. أما حين تتخاطر أمامه، متهادية، متلفّتة في كل اتجاه، وهي توقّع بحوافرها على مرمى ناظريه.. فقد كان ينتفض انتفاضة واحدة، رافساً، وراجّاً الطنبر رجّاً، إلى أن يستوي على قوائمه لحظة، ثم يشبّ على خلفيتيه، جاحظاً، محمحماً، مزبداً، وقد تفصّد عرق جسده والتمعت عضلاته المشدودة فبدت كنصالٍ في وهج الشمس.

وعلى عكس انفضاض الجمع وتفرّقهم، يرمح »أبو علي« نحو الرسن الطليق ويشدُّه إليه ثم يطبق، بومضة، على الحَكَمَة الجلدية، سائطاً في الهواء.. في الوقت الذي يهمز فيه عبّود فرسه فترتعد مجفلة ثم تنهز بقوة ماضية بعيداً.

ويرين السكون بعد تلك الزوبعة.

وإذ يتـابع المـارّة طـريقهم، يمضـي »أبـو علـي« فـي إحكـام أوثقـة الطنبـر، وفحـص عجلاتـه، وجمـع مـا تنـاثر عنه، حتى إذا ما تمّ ذلك، اقترب من حصانه فضمَّ رأسه إلى صدره، ثمّ طفق يمسح على جبهته وعنقه قائلاً: »لا تزعل يا روح.. من عمرها الدنيا هيك.. عكروته«.

وبكلمة يفوتنا على الدوام فهمها، يمشـي الحصـان ويمشي صاحبه متحاذيين، بينهما رسن متهدّل، وخلفهما صرير عجلات يخفت مع كل خطوة يجرّانها، إلـى أن يغيبهما الشارع العام عن أنظارنا تماماً، فنلتفت حينها، مـن غيـر همّـة، بـاحثين عـن ألعابنـا الرتيبـة التـي كنّـا تركناها منذ دقائق قليلة خلت.

طيط

لا أحد منّا خطر في باله قطّ، ولا تراءى له ولو في المنام، أن مدير اعداديتنا إياه سيطلّ بوجهه من كوة المرحاض صارخاً مستغيثاً، وأن الآذن »أبو محمود« سينهز هرعاً إليه، وأننا سنتجمّد في أماكننا ذهولاً وانبهاراً مثل تماثيل شمعية في متحف!

فلو وقعت الحادثة مع أي مدرِّس، حتى مع أستاذ اللغة العربية الأقدم والأشدّ صرامة، لانقضت وامّحت ذكراها من أذهاننا بعد بضعة أيام كأنها غيمة صيف عبرت. أما مع المدير نفسه، في وضح النهار، وعلى مرآى منّا جميعاً.. فقد حُفرت في ذاكرتنا وعلى ألسنتنا مثل نقش في حجر!

أكثر من ذلك، فإن الواقعة تحوّلت، مع الأيام، إلى منهل نعبُّ منه لإنشاء الصور المبالغ فيها والتخيلات المجنّحة والوضعيات الشاذة الغريبة، متبادلينها سرّاً فيما بيننا، فلا نشبع ولا نرتوي، حتى باتت الواقعة بالنسبة لنا

فرصة تاريخية لا تعوَّض للشماتة بالمدير والثأر لعذاباتنا منه!

فإلى يوم قبل وقوع الحادثة، بل إلى ساعة منها، ما كان لأكثرنا شجاعة أن يستطيع تهدئة ارتعاد ساقيه إذا ما مرَّ المدير قربه، ولا تمكّن أي مغامرٍ منّا أن يعيد الدم الهارب من وجنتيه لو هدّده الموجّه بإعلام المدير، وسواء أهمل طالب واجباته أو لكز آخر زميله.. تغيّب يوماً أو تأخر دقيقة.. تقصَّد المشاغبة أو سها عن خفض صوته.. فإن مجرد ذكر المدير وتذكُّر نظامه الخاص (الذي طبّقه على مدرستنا علاوة على الأنظمة العامة للمدارس) كان الوعيد الأشدّ والجزاء الأنجع للجميع: المغامر منّا، والمجرِّب، والمسالم!

وما كان للمغامرات والمخالفات، بالرغم من ذلك، أن تنتفي لولا حال المدرّسين! ففيما كانوا يتخشَّبون أمام أعيننا حين يدهم المدير صفوفنا، أو تراهم يترددون ويتقلقلون لحظة دخول مكتبه، أو يطرقون خافضين الصوت إذا ما استدعى أحدهم لشأن، ويطيرون من الفرح لو غادر اجتماعهم من غير عقوبة يسطّرها أو توبيخ يعلنه.. كان الآذن المسكين »أبو محمود« خرقة حقيقية بين يدي المدير، يمسح به الأرض مسحاً حتى صار رعباً

مجسَّماً: يسبقه ويلحق به ويدور حوله ويشيع عنه فيعتبر الجميع ويتعظون.. الأمر الذي حوّلنا إلى قطعان من خوف تصيخ إلى جرس المدير وتتبعه من غير أن تغفل عن وقعه لحظة..!

المدير الذي حسب بدقّة مسافة رفع قفاه عن كرسيه عند استقبال زائر أو مراجعة ولي أمر، وعرض ابتسامته ـ إذا ابتسم ـ وعدد كلماته، وحركة حدقتيه، ووضعية ساقيه وذراعيه في الجلوس، ومشيته، ولباسه، والتفاتته، ونسبة تأخره في الدخول إلى قاعة الاجتماع الشهري، ودرجة صوته وقت إصدار التعليمات والأوامر، وكيفية إبعاد المقرَّبين إليه كي يسعوا لعودتهم وتقريب المبعدين ليحرسوا حظوتهم، وطريقة إكراه أحد الأولياء على رجائه والتوسل إليه والتذلل أمام الجميع حتى إذا ما نال الأب تعاطف المدرّسين وتعاطفنا، أمر المديرُ أمينَ السرّ بتسطير كتاب فصل الطالب... مديرنا الحريص، المتنبِّه هذا لم يحسب لتلك الساعة حساباً!

ساعة خرج من مكتبه مهرولاً ـ على خلاف عادته ـ قاطعاً الباحة وضجيجنا، متجهاً صوب مرحاض الإدارة، حتى إذا ما وجده مشغولاً، انعطف بسرعة البرق نحو مراحيضنا، فجعلنا نلملم سراويلنا ونهرع فيما كان يدخل

كالعاصفة ويصفق الباب خلفه بشدّة ملحوظة..

وعلى غرابة دخول المدير إلى أحد مراحيضنا، فقد قدَّرنا أنه مصاب بإسهال حال بين قدرته على الانتظار وشغور مرحاض الإدارة.. لكنَّ ارتجاج الباب واهتزازه، بعد حين، أثار انتباهنا وأطلق تأويلاتنا، فأجمعنا على أن لسان الباب لا بدَّ انزلق ـ كما يحدث معنا أحياناً ـ داخل القفل وانفلت من تحكُّم قبضته!

وبلمحة، وجدنا أنفسنا أسرى مشاعر خليط من قلق وراحة وذهول وترقّب وخوف وبهجة، محاصرين بالتخمينات، ومكبَّلين بسلسلة واحدة تدير عيوننا بعضها نحو بعض، ثم تجذبها معاً إلى المرحاض كأن كائناً غريباً عن الأحياء، مغايراً لهيئاتهم، حلَّ بيننا وأوثب مشاعرنا المتنابذة.

في بضع دقائق، اختلفنا في آرائنا وتوقعاتنا بأكثر من خلافاتنا طوال العام.. غير أن تساؤلاً واحداً ظلَّ يتأرجح لدينا جميعاً من دون استقرار: كيف ستكون حال المدير بعد خروجه؟!

من كوة المرحاض المطلَّة على باحتنا، ظهر وجه المدير طافحاً بما لم نره من قبل ولا عرفناه فيه، ثم صرخ

بحزم آمراً: »أبو محمود.. ولك أبو محمود!« فرمح الآذن على هدى الصوت، وخلفه بعض المدرّسين، وخلفهم مَنْ تجرّأ بيننا، وخلف الأجرئاء منّا سعت جدران المدرسة وأرض باحتها ونوافذها ومقاعد صفوفها وأصابع طباشيرها.. حتى خلنا أن الساعة حلَّتْ!

لا شيء شغلنا عن رصد اللحظة التي سيخرج فيها. ولذا انشددنا بكليتنا إلى باب المرحاض الذي خلعه الآذن والمدرِّس الشاب. وما إن خطا خارجه، حتى دهمنا يقين جديد ـ لا ندري كيف غاب عنّا ـ وهو أن المدير يتبرّز أيضاً، ويبول ويعرق مثلنا تماماً، بل هو يتورط في مشكلة ويحتاج إلى مَنْ ينقذه منها مثله مثل البشر أجمعين!

أما حين سوّى هندامه، وشدَّ ظهره، وأسبل يديه، وثبَّت رأسه ـ على طريقته المدروسة في الظهور أمامنا ـ ومشى مضيفاً إلى وجهه ابتسامة حاول أن يداري بها غيظه وخيبته وانكساره.. فقد وُجد بيننا مَنْ يطلقها عنيفة، مدوّية، كما لو استلَّها من أعماقنا جميعاً: »طيط«، فنحني لها رؤوسنا لتعبر كسهم وتصيب هدفها تماماً.

القصص

العتمة 7

الصـــــــــــــــــــــمت 15

وقالت خديجة لخديجة 25

ومضــــــــــــــــــــــــــــة 35

»أبطـــــــــــــــل الأبطلـــــــــــــين« 41

الـــــــــــــــــــــــــــــــوعر الأزرق 49

العصبة 57

في حافلة صغيرة 65

ســــــــــــــــلاميتان مـــــــــــــن ورق 73

المسافة 85

الخانم 91

طيط 99

إبراهيم صموئيل

مواليد دمشق 1951. * إجازة في الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق 1982. * عمل لسنوات أخصائياً اجتماعياً في حقل ذوي الاحتياجات الخاصة.

* صدر للكاتب:

1- رائحة الخطو الثقيل/ قصص قصيرة ط1 عام 1988 / دار الجندي
ط2 عام 1990 / دار الجندي

2- النحنحات / قصص قصيرة ط1 عام 1990 / دار الجندي
ط2 عام 1994 / دار الجندي

3- الوعر الأزرق / قصص قصيرة ط1 عام 1994 / دار الجندي

4- المنزل ذو المدخل الواطئ/ قصص قصيرة ط1 عام 2002 / المؤسسة العربية للدراسات والنشر

5- فضاءات من ورق / زوايا صحفية عام 1999 / دار الجندي

* قامت الهيئة العامة لقصور الثقافة بإصدار مجموعتيه الأولى والثانية ضمن سلسلة: »آفاق الكتابة« العام 1999 في القاهرة.

* ترجم مجموعته الأولى »رائحة الخطو الثقيل« محمد منصور ورافيلا روسو إلى اللغة الإيطالية وصدرت عن ايدثيوني ديلا باتلايا في باليرمو العام 1997.

* ترجمت المستعربة ايرينا تروشانوفا إلى البلغارية عشر قصص مختارة من مجموعاته الثلاثة وأصدرتها في صوفيا العام 2002.

سحب و تعديل : علاء بريك هنيدي